الباب الثالث

طرق البحث فى علم الاجتماع

الفصل الأول

علم الاجتماع وموقف الباحث فيه

- الاجتماع كعلم بين العلوم
- الموضوعية فى علم الاجتماع
- التجريب فى علم الاجتماع
- الاجتماع علم نظرى
- قابلية الظواهر الاجتماعية للملاحظة

الفصل الأول

علم الاجتماع وموقف الباحث فيه

الاجتماع كعلم بين العلوم :

يقصد بكلمة علم أكثر من معنى واحد ، فهو بمعناه الواسع عبارة عن ناحية من نواحى المعرفة البشرية والبحث عن زيادة توسيع هذه المعارف بطرق تتصل بالتحصيل أو الوصف أو البحث ، أما المعنى الضيق لكلمة علم فيقتصر على ناحية من نواحى المعرفة تتصل بالطبيعة أو الإنسان ، والمعنى الضيق هذا هو الذى يطلق مثلا على المواد التى تدرس فى كلية العلوم وفى بعض الكليات الأخرى ومنها كلية الآداب . والفرق بين هذه المواد وبين تلك التى لا يطلق عليها علوم هو فى الطريقة نفسها التى نحصل بها المعرفة ، فأنواع المعرفة تكون علمية إذا حصلنا عليها بالطرق التى اصطلح على أنها علمية ، وكذلك يطلق على الشخص الذى يحصل على أنواع من المعرفة بهذه الطرق أنه عالم Scientist . وهذه الدراسة تتطلب السير بحسب أسس معينة منها أن تكون موضوعية objective وليست شخصية Subjective فيكون الوصف دون إصدار أحكام أو قيم معينة ، فى حين أننا فى دراستنا للفنون والآداب مثلا لا تكون لدراستنا قيمة إذا لم تصاحبها أحكامنا وآراؤنا الشخصية وذلك على عكس المفروض فى دراستنا العلمية التى تعتمد على الحواس المختلفة دون الاستعانة بالشعور الداخلى الذى لا يصلح أساساً للحكم العلمى كالترمومتر أو الميكروسكوب أو أجهزة قياس الضغط وكلها وسائل مختلفة لمساعدة حواسنا كالنظر والسمع واللمس .

هذا ويجب أن تحصل نتائجنا العلمية على موافقة وتأييد المنافسين لنا فى نفس الميدان ، وذلك نتيجة لأبحاثهم الخاصة وملاحظاتهم الخاصة وإلا أصبحت نتائجنا بدون قيمة علمية .

وإذا نظرنا للعلوم وأين يقع علم الاجتماع منها وجدنا كما رأينا فى جزء آخر من هذا الكتاب أن أوجست كونت فى تصنيفه لها يميز بين علوم بسيطة وعلوم مركبة ، ويرتبها

بذلك على الوجه التالى : الرياضة ــ الفلك ــ الطبيعة ــ الكيمياء ــ الحياة ــ لاجتماع . والبساطة والتركيب هنا لا يعنيان السهولة والتعقيد ، فأحياناً يكون العلم البسيط صعباً والمركب سهلا ، وإنما المقصود بالعلم البسيط ذلك الذى لا تعتمد دراسته إلا على معرفة هذا العلم بالذات أو الاكتفاء بقدر محدود من العلوم الأخرى ، ومثال ذلك الحساب الذى يعتبر أبسط العلوم ، لأننا لكى نتعلمه تكفى معرفة الأرقام وكيفية صفها ، ومضاعفاتها حتى إنه يمكن للشخص أن يحسب دون أن يلم بالقراءة والكتابة . ونظراً لهذه البساطة أدخل الحساب ضمن مواد التعليم الابتدائى ، ويأتى الجبر بعد الحساب من ناحية التعقيد ، إذ يجب لتعلمه أن تلم بالحساب وبالحروف أيضاً . ثم تأتى الهندسة ، ولتعلمها يجب أن نلم بالأرقام والحروف والرسم . وإذا انتقلنا إلى الطبيعة نجد أنه لتعلمها يجب الإلمام بالحساب والجبر والهندسة ، ثم تأتى الكمياء ولتعلمها يجب الإلمام بالطبيعة . وعلى هذا الشكل يتدرج الإنسان من العلوم البسيطة إلى العلوم المركبة .

وتأتى بعد العلوم التى تدرس الطبيعة العلوم التى تدرس الحياة كعلم الحيوان وعلم النبات ، ثم العلوم التى تدرس الإنسان فنجدها أكثر تعقيداً ، وهى تنقسم إلى مجموعتين الأولى وتدرس الإنسان كحيوان مثل علوم الطب المختلفة من تشريح ووظائف أعضاء وأمراض ، وهذه تتصل بالناحية الطبيعية للإنسان . ويرجع تعقيدها إلى ضرورة دراسة أخرى كثيرة قبلها ، أما المجموعة الثانية فتدرس الإنسان كإنسان ، وهنا تظهر ناحية التعقيد بشكل واضح من حيث إنه يعيش فى مجتمع له نظمه وتقاليده . ومن ناحية أن المجتمع قد يكون كبيراً أو صغيراً ، كما نجد أن بعض العلوم تدرس الاتصالات المادية بالمجتمع والحكومة والنظم الإدارية والاقتصادية والسياسية وغيرها ، كما يتميز البعض الآخر من هذه العلوم بطابعها الروحى مثل تلك التى تدرس الأديان وهى أكثر تعقيداً ، ولدراسة أى من العلوم الاجتماعية يجب الإلمام بعلوم أخرى كثيرة ، بل إن خطر مثل هذه الدراسات الاجتماعية يتمثل فى بدئها قبل الإعداد الكافى لدراسة ما قبل هذه العلوم . فدراسة الدين مثلا يجب أن تسبقها دراسة الدنيا .

وعلى ذلك فلم يكن غريباً أن يضع أوجيست كونت علم الاجتماع على قمة العلوم من ناحية التعقيد ، وذلك لأنه أكثر العلوم اتصالا بالعلوم الأخرى وخاصة الاجتماعية منها .

وعلم الاجتماع كأى علم من العلوم الأخرى يجب أن يراعى فى الدراسات المتعلقة به عدد من النواحى التى تتعلق بموقف الباحث وطرق البحث التى يتبعها وخاصة ما تعلق منها بالموضوعية والتجريب والاتجاه النظرى ، وسنناقش الآن كل ما يتعلق بهذه النواحى الثلاث .

الموضوعية فى علم الاجتماع Objectivity

إذا أردنا لعلم الاجتماع أن يكون علماً حقيقيًّا وأن يأتى بنتائج دقيقة يعتمد عليها عن الحياة الاجتماعية ، وأن يكون أساساً سليماً للاستفادة منه فى هندسة المجتمع ، إذا أردنا كل هذا أصبح ضروريًّا أن يكون علماً موضوعيًّا .

ولقد شرحنا فى مكان سابق من هذا الكتاب ما نعنيه بالموضوعية ، وهو ألا نكون متحيزين فى ملاحظتنا للظواهر الاجتماعية وترددها . وألا نتأثر بأية ناحية تعصبية ، دينية أو سياسية أو جنسية أو طبقية أو خلاف هذه من النواحى التى تهمنا شخصيًّا ، وألا نتأثر فى دراستنا بعاطفتى الحب والكراهية ، وقد وصفناهما بأنهما أسوأ رفيقين عند ملاحظة الظواهر الاجتماعية .

وإنها لمهمة شاقة أن نتقيد بالموضوعية فى الدراسات الاجتماعية فى الوقت الذى نجدها فيه مهمة سهلة فى الدراسات الطبيعية كالرياضة والكيمياء والطبيعة وعلم الحيوان ، ذلك لأننا فى الدراسات الاجتماعية نجد أنفسنا جزءاً من نفس الدراسة ، كما نجد أنها تهمنا شخصيًّا ، بينما نجد العالم الطبيعى حين يدرس الكواكب أو الذرة أو التفاعلات الكيماوية لا يكون متأثراً بحب أو كراهية كتلك التى يتأثر بها العالم الاجتماعى عند دراسته للعادات والتقاليد مثلا ، وحين يجد نفسه يتأثر إلى حد ما بتلك التى نشأ فى ظلها وأصبحت جزءاً من شخصيته .

وليس المقصود بالموضوعية هنا عدم التشويه المتعمد للحقائق فقط أو العرض المضلل لها بقصد نشر مثل أو مبادئ معينة ، وإنما نقصد أيضاً تحاشى تأثرنا عن غير عمد أثناء الدراسة ، فلا ننقد أو نحكم على المجتمعات الأخرى التى تختلف عن مجتمعنا فى الزمان والمكان ، على أساس القيم والاتجاهات والعقائد السائدة فى مجتمعنا ، كما يجب أن يراعى عند بحث واكتشاف الحقائق الاجتماعية وترددها ، أن نتنبه إلى حقيقة هامة ، وهى أن للمجتمعات المختلفة قيماً وعادات وتقاليد تختلف من مجتمع لآخر وأن هذا لايجب أن يدعونا لأن نحكم عليها من وجهة النظر السائدة فى مجتمعنا .

ولكن هل معنى هذا أننا نتطلب من الباحث الاجتماعى أن يجرد نفسه من مجتمعه

أو أن يفقد اهتمامه بوطنه ودينه ومثله ؟ والجواب عن هذا السؤال أن الباحث لكي يساعد وطنه أو يعضد رأيه أو يعالج المجتمع الذى يعيش فيه يجب أن يكون موضوعياً وأن يشعر دائماً أن أية سياسة اجتماعية يرجى لها النجاح يجب أن تقوم على أساس موضوعى .

ويمكن أن نوجز ما نعنيه بالموضوعية فى علم الاجتماع فى النقط التالية :

١ ــ أن يكون موقفنا عند دراسة الظاهرة الاجتماعية دون شعور بحب أو كراهية «Sine ira et studio» ، فلا نحاول إثبات أو تعديل أو تزكية أو تحقير رأى معين أو مثل معينة ، وأن نبعد عن أنفسنا عند الدراسة اهتماماتنا المختلفة لأن هدفنا وقتئذ هو اكتشاف الحقائق والمعارف دون أن ندخل عليها رغبة أو رأياً .

٢ ــ ألا يكون حكمنا عند دراستنا للمجتمعات الأخرى كما لو كانت مجتمعاتنا بقيمها الاجتماعية وآرائنا واتجاهاتنا وهى ناحية تعصبية يطلق عليها اصطلاح Ethnocentrism فالعقلية والقيم والآراء والاتجاهات تختلف من مجتمع لآخر فى الزمان والمكان ، كما أنها ليست مطلقة بل نسبية لأنها من إنتاج الحياة الاجتماعية لمجتمع معين ، هذا علاوة على أنها قابلة للتغير ، وعلى ذلك فما علينا عند الدراسة سوى الملاحظة والوصف والتفسير بحسب المكان والزمان دون أن نحكم على موضوع دراستنا من وجهة نظرنا إن كان حسناً أو سيئاً .

٣ ــ أن نستبعد فى دراستنا الاجتماعية الكلمات العامة المألوف استعمالها والتى تتميز مع ذلك بغموضها علاوة على خضوعها لقيم معينة تجعل معناها مختلفاً من مكان لآخر ومن زمان لآخر حتى نجدها فى النهاية غير صالحة كأساس للتحقيق العلمى الاجتماعى ، ولذلك أصبح ضرورياً أن نكون على حذر فى استعمالها ويطلق على مثل هذه الكلمات أو الاصطلاحات Vulgar Prenotions ومن أمثلتها لفظ الديمقراطية Democracy ، وهنا يجب أن نحدد أية ديمقراطية نعنى أهى الديمقراطية فى معسكر الدول الغربية أم معسكر الدول الشرقية ؟ لقد رأينا فى الحرب العالمية الثانية الولايات المتحدة وروسيا تحاربان معاً باسم الديمقراطية ، ثم نجد الآن كلا منهما تحارب ديمقراطية الأخرى . ومن أمثلة هذه الألفاظ أيضاً الطبقات الاجتماعية Social classes أهى طبقات بحسب نوع المهنة كالموظفين والعمال ، أم طبقات بحسب الوضع

المالى كالأغنياء والفقراء ، أم طبقات الخدم والأسياد ، وإلى آخر ذلك من أمثلة يضمها عموماً اصطلاح الطبقات الاجتماعية . كما يمكن أن نمثل لذلك أيضاً بكلمة ثورة Revolution ، وحيث نجد لها تفسيرات مختلفة ، أهى ثورة الإصلاح المسيحية أم الثورة الفرنسية ، أم الثورة الروسية ؟ أهى الثورة التى توصف عادة بأنها حمراء كالثورة الفرنسية أم الثورة التى توصف بأنها بيضاء كالثورة المصرية ؟ لقد كانت النازية والفاشية ثورتين ، فلما سقط هتلر وموسولينى أصبحتا جريمتين . وهذا يرينا كيف أنه لا يوجد هناك اتفاق عام على ماهية الثورة ، وهذا يجعلنا لا نستخدم هذه الكلمة فى أبحاثنا العلمية إلا بحذر وبتحديد الزمان والمكان .

ومن أمثلة هذه الاصطلاحات أيضاً اصطلاح الاشتراكية وهو اصطلاح لا يجب أن نستخدمه إلا بتحديد لمعناها الذى نقصده فى دراستنا ، فالاشتراكية اصطلاح مطاط ليس له معنى موحد تتفق عليه ، فالاشتراكيات كثيرة كالاشتراكية الماركسية والصينية والإنجليزية والمصرية وغيرها من أشكال للاشتراكية تتفق فى الاسم ولكنها تختلف فى التفاصيل مما يتطلب الحذر فى استخدامها .

ومن ذلك نرى أن مثل هذه الاصطلاحات يصحبها التعقيد وعدم الوضوح ، ولا يمكن تعريفها بالتالى فى كلمة واحدة أو حتى جملة واحدة .

التجريب فى علم الاجتماع Empiricism

لكى يكون علم الاجتماع علماً بمعنى هذه الكلمة يجب أن يكون تجريبياً كالعلوم الطبيعية ، إذ بدون التجريب يصبح نوعاً من الفلسفة الاجتماعية أو فلسفة التاريخ. وهناك صلة وطيدة بين التجريب والموضوعية لأن التجريب امتداد لها ، بل إن فى استطاعتنا أن نكون تجريبيين مائة فى المائة فى حين يصعب علينا أن نكون موضوعيين بنفس النسبة .

وأهم ما نقصده بالتجريب هو ألا نفترض مقدماً أية نتائج للظواهر الاجتماعية ، وإنما نترك الحقائق نفسها لكى تقرر Nothing a Priori فلا نقول أو نكتب عن الظواهر الاجتماعية شيئاً إلا نتيجة كشف وفحص بطرق علمية ، كما لا نحاول أن نكتشف نظريات عامة عن هذه الظواهر دون كشف أو إثبات عن طريق الحقائق نفسها ، وألا نقبل نظريات إلا على هذا الأساس ، وأن نتذكر دائماً ما قاله إميل دوركايم فى هذا المعنى « يجب على عالم الاجتماع أن يشعر حين يطرق العالم الاجتماعى بأنه يلج عالماً مجهولا ، ولا مناص له من أن يشعر بأنه يوجد وجهاً لوجه مع بعض الظواهر التى تخضع لقوانين ما كان يدور بخلده قط أنها توجد حقيقة ، كما كان الأمر فيما يتعلق بقوانين الحياة قبل أن ينشأ العلم الذى يدرسها »(١) .

وما الفرق بين المذهب التجريبى والمذهب العقلى Rationalism سوى أن الأول يعتمد على الحقائق بينما يعتمد الثانى على العقل . ولقد كانت الفلسفة دائماً مجالا للصراع بين المذهبين ، فكان المذهب العقلى يعتمد على العقل فى اكتشاف المعارف الجديدة بينما كان المذهب التجريبى يعتمد على المعرفة عن طريق التجربة وليس عن طريق العقل . ولقد تخلصت العلوم الطبيعية فى العصور الحديثة من المذهب العقلى كلية ، ويجب أن نصل بعلم الاجتماع إلى هذه المرحلة ، فيكون كل اكتشاف معتمداً على طريقة علمية صحيحة حتى إن كل تكرار للتجربة يأتى بنفس النتيجة .

---

(١) إميل دوركايم . قواعد المنهج فى علم الاجتماع . ترجمة الدكتور محمود قاسم ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١١ .

ولدينا الآن كثير من النظريات الخاصة بالحياة الاجتماعية ، إلا أنها فى مجموعها لا تعتمد على الحقائق ولا يمكن أن نقبلها نهائياً إلا إذا اعتمدت على ذلك، وموقفنا منها إذن هو عدم الإيمان بها إلا إذا أمكن إثباتها نتيجة للحقائق نفسها . ومعلوم طبعاً أن كل العلوم بدأت بهذه المرحلة الفلسفية ثم انتهت تدريجياً إلى مرحلة البحث العلمى الصحيح ، ولا يشذ علم الاجتماع عن بقية العلوم وإن كانت مهمة انتقاله من المرحلة الفلسفية إلى المرحلة العلمية أشق بكثير منها عند العلوم الطبيعية للأسباب الآتية :

١ — أن الحقيقة الاجتماعية أكثر الحقائق تعقيداً وصعوبة عند معالجتها بالطرق العلمية لأنها تدعو أكثر من غيرها إلى الاتجاه الشخصى ، كما أن تردد الظواهر فى الحياة الاجتماعية ليس من السهل كشفه كما هو الحال فى الحياة الطبيعية ، حيث يمكن مثلا اكتشاف تردد الظواهر الفلكية والكيميائية وحتى النفسية الفردية بسهولة .

٢ — عند التحقيق العلمى فى الظواهر الاجتماعية نجد أن تعدد الأسباب Plurality of causes مسئول عن تكوين الظاهرة ، كما نجد الاعتماد الوظيفى للظواهر بعضها على بعض هو السائد مما يجعل من الصعب أن نصل إلى قوانين ثابتة كما هو الحال فى الظواهر الطبيعية ، وعلى ذلك فنحن نكتفى فى دراساتنا الاجتماعية حتى الآن بالاحتمالات القوية أو الضعيفة بدلا من القوانين الثابتة .

٣ — ارتباط الظواهر الاجتماعية بالمكان والزمان ، وهذا يعنى أن ضرورة حدوث التردد مقيد بزمان ومكان معينين ، فى حين نجد الأمر عكس ذلك فى العلوم الطبيعية ، وحيث لا تتقيد الظواهر أو تتردد الظواهر بالزمان والمكان، فالماء يغلى فى درجة حرارة معينة فى كل زمان ومكان ، وكذلك الحال فى ظواهر تتعلق بالجاذبية والكثافة والأجسام الطافية وخلافها . ولهذا السبب نجد أن كل الجهود التى بذلت فى علم الاجتماع للوصول إلى قوانين مجردة مثل تلك التى تنتهى بها الدراسات الطبيعية ، تنتهى عادة حتى الآن بعقم عالمى .

ويمكن أن نلخص الأخطاء التى تقع فيها الفلسفة الاجتماعية فيما يلى :

١ — التخمين Speculation وذلك حين تعتمد فى بحوثها على الأقوال الشائعة أو على بيانات تاريخية معينة تعتبرها أساساً لعدد من قوانين الحياة الاجتماعية التى تتميز بالصحة

والعمومية General validity فى الوقت الذى نجدها فيه وقد تأثرت تماماً بوجهة نظر شخصية للعالم الذى وضعها . وقد يكون ذلك العالم موهوباً إلا أنه يكون عادة متأثراً بناحية شخصية ، حتى إننا نجد أن كل فيلسوف اجتماعى يحاول أن يكون مجدداً أو فريداً فى اكتشافه لدرجة أصبح علم الاجتماع معها معرضاً ازدحم بالنظريات المختلفة التى يناقض كل منها الأخرى، يؤمن بعضها بالتطور والبعض بالتغير الدائرى للمجتمعات الإنسانية ، يؤمن بعضها بتطور المجتمعات تطوراً إلى الأحسن والبعض يؤمن بتدهورها، هذا علاوة على النظريات المتشائمة والنظريات المتفائلة . وبذلك أصبح شائعاً بناء كثير من النظريات المختلفة التى تتميز بالطابع الفلسفى وتعتمد على تاريخ الإنسان أو الحياة الاجتماعية عامة من وجهات نظر شخصية مختلفة نتج عنها اختلاف النظريات باختلاف الفلاسفة أنفسهم . وهذا الوضع ما كان يحدث لو أن أبحاثهم أو نظرياتهم قامت على أساس موضوعى تجريبى يعتمد على الحقائق بطرق تجريبية لا مجال فيها للناحية الشخصية كما هو الحال فى علوم الفلك والطبيعة والحياة . ونتيجة لهذه الفلسفات الاجتماعية العديدة لم يعد علم الاجتماع فى حاجة إلى مزيد من هذه النظريات البراقة ، وإنما إلى كشوف علمية يمكن إثباتها وإعادة فحصها .

ويمكن أن نمثل لبعض هذه النظريات الفلسفية بالأمثلة التالية :

(ا) قانون الثلاث حالات لأوجيست كونت والذى يرى فيه أن الإنسانية تجتاز ثلاث مراحل هى المرحلة الإلهية ومرحلة البحث عن العلة ثم المرحلة الوضعية ، وقد رأى كونت أننا إذا أردنا إصلاح المجتمع كان لابد أن ندفعه ليمر خلال هذا الطريق الطبيعى .

(ب) نظرية دوركايم فى تطور المجتمعات خلال مرحلتين تتميز الأولى بالتضامن الميكانيكى والثانية بالتضامن العضوى ، وحيث يرى أن الانتقال من المرحلة الأولى إلى الثانية يأتى نتيجة تكاثر السكان وتقسيم العمل بينهم لكى يتمكنوا من المعيشة معاً .

(ح) نظرية جيدنجز فى تطور النوع الإنسانى خلال مراحل ثلاث أطلق عليها بالترتيب :

The Demogenic , The Ethnogenic , The Anthropogenic

وقد رأى فى هذه النظرية أن الجماعات البدائية تعيش فى المرحلتين الأولى والثانية ،

كما يرى أن الحياة الاجتماعية تبدأ فى المرحلة الثالثة وتنقسم بدورها إلى ثلاث مراحل فرعية ، مرحلة عسكرية دينية ومرحلة الحرية والقانون والمرحلة الاقتصادية الحقيقية ، ولا بد لكل مجتمع من أن يمر خلال هذه المراحل الثلاث ، وقد مثل جيدنجز بثمانية مجتمعات للمرحلة الأولى ومنها مصر القديمة وبابل والصين والهند ، وممثل بثلاثة مجتمعات للمرحلة الثانية ، هى الدولة اليونانية القديمة والإمبراطورية الرومانية والحضارة الغربية ابتداء من عهد النهضة ، أما المرحلة الثالثة فليس لها سوى مثال واحد هو الحضارة الغربية الحاضرة وحيث يسودها التقدم الاقتصادى .

(د) نظرية تونيز عن المجتمع والمجتمع المحلى والتى رأى فيها أن تغير المجتمع المحلى وتطوره نحو المجتمع يعتبر تدهوراً للحياة الاجتماعية .

(هـ) نظرية فيلفرد باريتو Pareto الدائرية فى التغير الاجتماعى ، ويرى فيها أنه لا يوجد سوى نوعين من الحكومات تكون السيادة فى النوع الأول لمن أطلق عليهم المضاربين Speculators وتكون السيادة فى النوع الثانى لمن سماهم المتحفظين Rentiers ويمثلون الفئة التى لا تحب التغير . ويتأثر النوع الأول من الحكومات بأعضائها المغامرين المغرمين بالتجديد (تقدميون) وذلك بعكس أعضاء النوع الثانى (محافظون) . والنوعان ليسا اقتصاديين كما يفهم من التسمية بل اجتماعيين . ويفترض باريتو فى النوع الأول أن الصفوة فيه Elite مفتوحة تقبل الجدد بينما يفترض أنها مقفلة ، فى النوع الثانى ، أى أن حكومة المضاربين تقبل أفراداً من الطبقة الدنيا مع ما يتبع ذلك من احتفاء للطبقات العليا بالتدرج وحلول الطبقات الدنيا مكانها لأن الطبقات العليا لا تنجب ما فيه الكفاية . وبذلك يصبح النظام المضارب مجالا لأحزاب كثيرة مختلفة تدعو فى النهاية إلى سقوط النظام وتنتهى الديموقراطية تبعاً لذلك بانتهاء النظام المضارب ليحل محله النظام المحافظ .

هذه أمثلة محدودة لهذا النوع من الفلسفة الاجتماعية والنظريات التى قامت حولها ، ونقول محدودة لأن أعدادها قد بلغت المئات .

٢ — التبسيط الزائد فى تفسير الظواهر الاجتماعية Oversimplification وهذا خطأ آخر تقع فيه الفلسفة الاجتماعية ، وذلك عندما يحاول الفلاسفة الاجتماعيون

تفسير ظاهرة اجتماعية معقدة جداً عن طريق قانون أو مبدأ واحد بسيط ، كما هو الحال عند من يرون أن العامل الأساسى فى الحياة الاجتماعية هو البيئة الجغرافية ، أو غيرهم ممن يرون أن هذا العامل يتمثل فى الجنس أو فى الوضع الاقتصادى وخلاف ذلك من عوامل ، حتى لقد أصبحت النظريات الفلسفية الاجتماعية هو مما يمكن وصفه بأنها[1] The bed of Procrustes لأن الحقائق كثيراً ما تختار لكى تلائم نظرية معينة ، وهو اتجاه يؤدى إلى تجاهل الحقائق ، كما أنها فى الوقت نفسه علامة على عدم النضج العلمى .

٣ — تحاول الفلسفة الاجتماعية أن تعرف « معنى التاريخ » وهى تتساءل دائماً أين يذهب التاريخ وما الغرض من تطور النوع الإنسانى وما الهدف الذى يسعى إليه الإنسان ويحاول بعض فلاسفة التاريخ فى بعض الأحيان إظهار ما ستكون عليه الدولة المثالية للإنسان والتى لا بد أن يصل إليها فى النهاية ، كما فعل كل من هيجل وكانت وماركس ولقد كانت بعض هذه المحاولات سبباً فى تزكية مثل معينة أو نواح دينية أو خلقية أو سياسية بذاتها ، وكلها محاولات شخصية لا تعبر إلا عن اتجاه معين لفرد أو أمة أو دولة أو جماعة ، ومن الواضح أن أية محاولة للبحث عن معنى التاريخ وغرضه وهدفه لابد أن تكون موضوعية وتجريبية ، هذا ما لم يحدث فى كل الدراسات التى لها صلة بفلسفة التاريخ والتى استعرضنا طرفاً منها فى الباب الثانى من هذا الكتاب .

---

(١) Prokroustes ، شخصية أسطورية يونانية للص كان يلائم بين ضحاياه وبين سريره بشدهم أو بتقصيرهم عن طريق قطع أجزاء منهم .

الاجتماع علم نظرى Theoretical

ونعنى بنظرى هنا أن علم الاجتماع فى دراسته للظواهر الاجتماعية إنما يهدف إلى المعرفة فحسب ، فهو يقوم باكتشاف الحقائق وانتظام حدوث الظواهر فى الحياة الاجتماعية دون أى اعتبار لاستخدام هذه المعارف أو التطبيق العملى لهذه الاكتشافات . لأن هذا التطبيق من اختصاص علوم أخرى يطلق عليها العلوم الاجتماعية التطبيقية Social Applied Sciences ، تلك العلوم التى تتميز عادة باتباعها لسياسات معينة مختلفة تتعلق بالخدمات الاجتماعية والترفيه والتشريع والسياسة وإلى آخر ذلك من مجالات تطبيقية تقوم عادة باستخدام ما يكتشفه علم الاجتماع .

ولكى نفرق بين العلوم النظرية والعلوم التطبيقية نجد أن العلوم النظرية تبحث عموماً فى « ماذا عن ؟ » بينما تبحث العلوم التطبيقية فى « كيف نفعل؟ » ، ومهمة الأولى اكتشاف القوانين وانتظام حدوثها وترددها ، بينما نجد أن مهمة الثانية هى استخدام هذه القوانين فى بعض الأغراض العملية ، وعلى ذلك فلا يجب الخلط بين وجهتى نظرهما ، ذلك لأن الخلط بينهما يؤدى إلى تشويه الحقائق العلمية لأنه يدخل على العلوم النظرية بعض العناصر الشخصية .

وهناك بعض الآراء التى تقول بأن واجب علم الاجتماع هو دراسة الحقائق والمشاكل التى تهم المجتمع لكى يمكن الاستفادة بهذه الدراسات لأغراض تطبيقية ، ولقد أصبح هذا الاتجاه العلمى نحو تطبيقات العلوم لخدمة المجتمع أمراً ضرورياً متفقاً عليه بين العلماء فى كل بلاد العالم وخاصة فى إنجلترا والولايات المتحدة ، ويتفق معهم فى هذا الرأى الأستاذ الدكتور على أحمد عيسى وذلك حين يرى ضرورة تشجيع هذا الاتجاه نحو علم الاجتماع التطبيقى فى مصر أيضاً ، ولكن على الرغم من كل هذا يجب أن تدرس هذه المشاكل بالدقة التى يتطلبها البحث العلمى . أما كيف

---

(١) Aly A. Issa, (Applied Sociology) in the Bulletin of the Faculty of Art, Alexandria University, Vol. VIII. Dec. 1954, pp. 101-107.

تحل هذه المشاكل فهذا مما يتعلق بالهندسة الاجتماعية Social Engineering ولهذه رجالها المتخصصون ، أما الباحث فى علم الاجتماع فهدفه الأول هو مساندة الاتجاه النظرى أو النظرية فى علم الاجتماع وهذا لا يتعارض مع إمكان الاستفادة مما يكتشفه فى خدمة المجتمع مستقبلا .

قابلية الظواهر الاجتماعية للملاحظة

يبحث علم الاجتماع فى الحالات العقلية للإنسان وتصرفه وإنتاجه من ناحية ما يتعلق بكل هذه النواحى من صفات شائعة ومدى انتظام حدوثها وترددها ، والمقصود بالصفات الشائعة ناحية الثبات أى حالة المجتمع كشىء ثابت كما نقصد من مدى انتظام الظهور والتردد الناحية الديناميكية أى التغير الاجتماعى ، وعلى هذا الأساس ينحصر موضوع علم الاجتماع فى دراسة المجتمع فى حالتى ثباته وتحركه .

وعند دراستنا للظواهر الاجتماعية كالأمم والدول والطوائف الدينية والمناطق الثقافية ، لا تكون دراستنا لها كأشياء لها وجود واقعى ملموس كجسم إنسان أو حيوان ، وإنما ندرسها كأشياء متشابهة ومنتظمة فى ظهورها فى تفكير الأفراد وتصرفهم وإنتاجهم ، لأن الظاهرة الاجتماعية تتميز بطبيعتها بأنها جمعية ، وهذا يعنى أنها لا يمكن أن تكون وحدة أو جسما ، وفى كونها جمعية ما يفيد بأنها لا تلاحظ إلا على مجموعة كبيرة من الحالات الفردية ، كما أنها تلاحظ فى حالة تشابهها وانتظام حدوثها بين هذه الحالات الفردية . وعلى هذا الشكل فقط يصبح من المحتمل دراسة الظاهرة الاجتماعية علمياً ، كما يفهم من ذلك أيضاً أن الفرد فى حد ذاته ليس هو مركز اهتمامنا كفرد واحد لأننا فى علم الاجتماع لا نهتم بتركيبه الجثمانى أو العقلى ، وإنما نبحث عن الفرد كعضو فى مجموعة كبيرة من الأفراد تحمل حقائق اجتماعية معينة ، حقائق تظهر نفسها على الفرد الإنسانى كحالة عقلية أو تصرف أو إنتاج ، كما أن هذه الحقائق الاجتماعية قابلة للملاحظة بحسب انتشارها وانتظام حدوثها بين عدد كبير من الأفراد ، أما انتظام حدوثها لفرد واحد فلا دخل له بعلم الاجتماع . ويمكن أن نمثل للحالات العقلية أو التفكير الجمعى بالشعور بالانتماء إلى جماعة معينة أو الرأى العام ، كما يمكن أن نمثل للتصرف الجمعى بعمليات الانتخاب وعادات التحية والإضراب والمظاهرات ، أما الإنتاج فنمثل له بدستور الدولة وقوانينها والكتب والمصانع والطائرات والسيارات والصور .

وإذن فالظواهر الاجتماعية لا يمكن أن نرجعها إلى وجود محدود كأجسام حتى

ما تعلق منها بالظواهر الإنتاجية ، فسيارة معينة لا تصبح فى حد ذاتها ظاهرة اجتماعية وإنما هى كذلك بحكم انتشارها فقط ، والتصور المشترك عنها فى ذهن الأفراد واتفاقهم المشترك عن كل ما يتعلق بها فإذا انعدم ذلك ما أصبح الإنتاج ظاهرة اجتماعية فى مجتمع معين بينما يكون كذلك فى مجتمع آخر ، كل هذا يبعد بها عن أن تكون جسماً معيناً ملموساً لأن الجسم المعين الملموس ليس هو الظاهرة الاجتماعية . ومن أخطاء علماء الاجتماع الأول تشبيههم المجتمع بجسم عضوى ، هذا الاتجاه الذى كان يرجع الظواهر الاجتماعية وخاصة الجماعات إلى حقيقة خاصة لها صلة بجسم الإنسان ، وبذلك كانت الأسرة والجمهرة والطبقة والأمة والدولة فى نظر هؤلاء العلماء كيان مستقل Entity أو أشياء لها طبيعة عضوية . ومن وجهة النظر هذه يصبح من المستحيل دراستها علمياً لأن الظواهر الاجتماعية ليست أشياء من هذا النوع ، ليست وحدات مستقلة أو أجسام بل على العكس من ذلك نجدها جمعية كما أنها عبارة عن تشابه أو انتظام فى التفكير والسلوك والإنتاج .

ولكن على الرغم من كل ذلك يجب أن نؤكد هنا بأن الظاهرة الاجتماعية موجودة فعلا وأنها حقائق من نوع خاص Sui generis ، بل إنه من المستحيل أن نفهم الظواهر الاجتماعية وأن نفسرها دون أن نفترض أنها حقيقة معينة وأنها موجودة فعلا .

ومن ناحية أخرى أرى أنه من الضرورى أن نقر بأن التشابه وانتظام الحدوث والظهور فى التفكير والسلوك والإنتاج للأفراد لا يمكن أن نعتبره شيئاً ثابتاً لا يتغير بين هؤلاء الأفراد ، فمن طبيعة الظواهر الاجتماعية ظهورها بصور مختلفة من فرد لآخر أو من جماعة لأخرى ، وأنها تتبع نظاماً تدريجياً يمكن قياسه ، فالشعور الوطنى مثلا نجده متدرجاً فى مجتمع ما من التعصب المتطرف إلى عدم المبالاة تماماً ، وعمل علم الاجتماع هو الكشف عن الاتجاهات والتشابه بين أنواع الاختلافات بين الأفراد بسيطة كانت أو كبيرة ، بل لقد نشأ فرع من فروع علم الاجتماع تخصص فى دراسة هذه الاتجاهات وقياسها بكثير من الوسائل تنمو وتثبت بقاءها يوماً بعد يوم .

وثمة ناحية أخرى هى أن الأساس فى تفسير الحقائق الاجتماعية ، يجب أن يكون الحقائق الاجتماعية نفسها . وعلى الرغم أن الحياة الاجتماعية تتأثر أيضاً بالعوامل الطبيعية كالجغرافية والحيوية والنفسية إلا أنه لا يمكن مطلقاً أن نفسر الظواهر الاجتماعية بقوانين

الطبيعة والحياة والنفس فمثل هذه القوانين قد تتوافر فى مكان معين وزمان معين ولكنها مع ذلك تكون قاصرة عن نشأة ظواهر اجتماعية معينة نجدها فى مكان آخر أو زمان آخر ، وإذن فهى بذلك ليست المسئولة عن قيام مثل هذه الظواهر ، ولا بد والحالة كذلك أن تكون هناك نواح أخرى غيرها غير طبيعية قد ساعدت على قيام ظواهر اجتماعية معينة . وإذن فالحضارة والتغير الاجتماعى لا يمكن إلا أن تفسر أولا بالظواهر الاجتماعية .

وإذن فالحقيقة الاجتماعية هى أكثر الحقائق تعقيداً لأنها تزيد فى ذلك على الحقائق الطبيعية والنفسية ، ولما كنا لا نستطيع استخدام الطرق التجريبية التقليدية للعلوم الطبيعية فى علم الاجتماع ، تلك الطرق التى تتمثل فى المعامل وأنابيب الاختبار والأجهزة العلمية المختلفة ، أصبح لعلم الاجتماع طرقه التجريبية الخاصة به والتى تضع فى اعتبارها دائماً مبدأ تعدد الأسباب الذى هو أساس تفسير أية ظاهرة اجتماعية . ولما كنا مقتنعين بأنه لا يمكن أن نستبعد كل الظواهر لندع ظاهرة واحدة تعمل بنفسها كما هو الحال فى الطرق التجريبية التقليدية ، ونظراً لأننا لا نستطيع أن ندخل فى الاعتبار كل الأسباب التى تؤثر فى الظاهرة الاجتماعية ، كان علينا فى علم الاجتماع أن نقنع لا بالقوانين الثابتة بل بالاحتمالات أو مدى توقع الظهور ، ففى التنبؤ بمظاهر اجتماعية معينة لا نستطيع إلا أن نقول بأن هناك احتمالا أكثر من آخر أو بتحديد نسبة مئوية معينة لاحتمال معين ونسبة أخرى لاحتمال آخر ، وذلك على الأقل خلال المرحلة التى يجتازها علم الاجتماع فى الوقت الحاضر الذى يحاول فيها أن يثبت بقاءه كعلم بين العلوم .

الفصل الثانى

مناهج البحث فى علم الاجتماع

- مقدمة
- المسح الاجتماعى
- البحث الاجتماعى
- المنهج التاريخى
- منهج بحث الحالة
- المنهج التجريبى

الفصل الثانى

مناهج البحث فى علم الاجتماع

مقدمة :

يعتبر اصطلاح منهج من الاصطلاحات التى لم يتفق بعد على تحديد مفهومها وعلى ذلك فلا يعتبر غريباً أن نجـد لها تعاريف تختلف باختلاف من يكتبون فى هذا الموضوع ، بل إن اصطلاح منهج كثيراً ما يتميز بعدم الوضوح فى ذهن كثير من الطلاب الذين يخلطون عادة بين مجموعة من التعاريف أو التفسيرات المختلفة ، وبنوع خاص ما يعرف به المنهج فى كثير من الأحوال أو على ألسنة كثير من الباحثين بأنه الأسلوب المستخدم فى الدراسة فإذا ما سألت عما يعنيه الأسلوب ما وجـدت إجابة واضحة أو مقنعة .

وأرى أن اصطلاح منهج يتضمن معنيين أساسيين : أحدهما المنهج بمعناه الواسع والثانى المنهج بمعناه الضيق ، أما منهج البحث أو مناهج البحث بمعناها الواسع فتشمل كل ما يتعلق بعملية الدراسة العلمية فى علم الاجتماع من نواح مختلفة يدخل ضمنها المنهج بمعناه الضيق كما سنوضحه بعد ، أى أن المنهج بمعناه الواسع يشمل كل النواحى المتعلقة بالدراسة ، مثل الطرق المختلفة للحصول على البيانات كاستخدام الملاحظـة أو المقابلة الشخصية أو المقابلة البريدية وخلافها ، ومثل الطرق المختلفة لاختيار العينـة المستخدمة فى الدراسة وطرق اختيار وحداتها ، والنواحى الأخرى التى قد يستخدمها الباحث فى دراسته كالناحية الإحصائية أو استخدام المقارنة والجداول والرسوم البيانية والخرائط والصور وإلى آخر ذلك من نواح قد يلجأ الباحث إلى استخدامها فى دراسته لتحقيق بعض أهدافه من هذه الدراسة ، ولكون هذه النواحى كثيرة ومتعددة أقول إنها مما يتضمنه اصطلاح منهج بمعناه الواسع .

أما فيما يتعلق باصطلاح المنهج بمعناه الضيق فالمفروض فى الدراسات التى يقوم بها علم الاجتماع أنها لا بد أن تقوم على أساس دراسة مجموعة من الأشخاص

تعيش فى مجتمع معين ضمن حدود مكانية معينة وفى مرحلة زمنية معينة ، وأرى أن موقف الباحث من هؤلاء الأشخاص الذين يتضمنهم مجال بحثه وتحديده أو الإجابة على تساؤل « على من منهم ستقوم الدراسة ؟ » هو الذى يحدد ما يعنيه المنهج بمعناه الضيق ، فقد يرى الباحث أن تتضمن دراسة كل الأشخاص الذين يدخلون فى مجال بحثه ، ولا نعنى بقولنا كل الأشخاص أننا لا بد أن ندرس بالضرورة المجموع كله ، قد يحدث هذا ، وقد نكتفى بدراسة كل الأفراد عن طريق دراسة عينة منهم وكلمة عينة تعنى أنها لا بد أن تكون ممثلة للمجموع وهى تعنى بذلك أننا نفترض جوازاً أننا قد درسنا المجموع عن طريق دراسة العينة وهو ما يحدث فى العادة فى دراستنا للمجتمعات المختلفة . أقول إن الباحث إذا اختار أن يكون موقفه كذلك من الأشخاص الذين يتضمنهم مجال بحثه يكون قد استخدم منهج « المسح الاجتماعى » أو منهج « البحث الاجتماعى » وسنوضح فيما بعد طريقة التمييز بين المنهجين والفرق بينهما .

وقد يحدد الباحث موقفه من الأشخاص الذين يتضمنهم مجال بحثه عن طريق اختيار عينتين من هؤلاء الأشخاص تقوم على أساسهما الدراسة وذلك باعتبار أن العينتين متفقتان فى كل المتغيرات فيما عدا متغير واحد يتوفر فى إحداهما ولا يتوفر فى الثانية وهدف الباحث فى هذه الحالة هو الكشف عن أثر هذا المتغير الذى لا يتوفر إلا فى إحدى العينتين على الظاهرة التى يدرسها ، وموقف الباحث من الأشخاص الذين تقع عليهم الدراسة فى هذه الحالة يختلف عن موقفه فى الحالة الأولى عندما قلنا إنه يستخدم منهج المسح الاجتماعى أو منهج البحث الاجتماعى ، وعلى ذلك نقول إن الباحث فى الحالة الثانية إنما يستخدم فى دراسته المنهج التجريبى .

وقد يقوم الباحث بدراسة يختلف فيها موقفه من الأشخاص عن الموقفين السابقين وذلك حينما نجده يكتفى بدراسة وحدات معينة محدودة العدد يختارها من المجموع حسب أسس معينة وعلى أساس أن يدرس هذه الوحدات دراسة شاملة ومتعمقة تتطلبها طبيعة الدراسة أو بعض المقتضيات الأخرى ، وفى هذه الحالة نجد أن موقفه من الأشخاص الذين يتضمنهم مجال دراسة يختلف عن ذلك الذى اتخذه فى المنهجين السابقين ونقول فى هذه الحالة إنه قد لجأ إلى استخدام منهج دراسة الحالة كما سنوضحه بالتفصيل فيما بعد .

وقد يتطلب البحث دراسة أشخاص لا وجود لهم وقت القيام ببحثه لأنهم كانوا يعيشون فى الماضى أو فى فترة تاريخية تسبق تلك التى يقوم البحث فى ظلها ، وهو موقف جديد من الأشخاص الذين يتضمنهم مجال البحث، وإذن فهو سيقوم بدراستهم بطريقة غير مباشرة يلجأ فيها إلى ما كتب عنهم أو ما يمكن الحصول عليه من كبار السن الذين عاصروهم وإلى غيرها من الوسائل ، ودراسة هؤلاء الأشخاص غير الموجودين فى الحاضر تتطلب منهجاً من نوع آخر هو ما يطلق عليه « المنهج التاريخى » .

وهكذا نكون قد حددنا ما يعنيه اصطلاح منهج بالمعنى الضيق، وعلى هذا أيضاً يدخل اصطلاح المنهج بهذا المعنى ضمن ما يتضمنه اصطلاح المنهج بمعناه الواسع .

ولعله واضح أن الباحث فى دراسة قد يلجأ إلى أكثر من منهج واحد من هذه المناهج الخمسة التى استعرضناها ، لأن طبيعة الدراسة قد تتطلب ذلك وهذا الأمر هو غالباً ما يحدث فى دراسات علم الاجتماع .

وقد نسمع بين حين وآخر من يقول إنه قد استخدم فى دراسته « المنهج الإحصائى » أو « المنهج المقارن » أو غيرهما من الأسماء الأخرى فى الوقت الذى أرى فيه أن استخدام الإحصاء أو المقارنة لا يحدد منهجاً فى ذاته وإنما يمكن القول فقط أن استخدام أى منهما إنما يمثل إحدى الطرق العديدة التى يستخدمها الباحث للحصول على البيانات ففى علم الاجتماع نلجأ إلى الإحصاء كوسيلة للحصول على بيانات جديدة يتعذر الحصول عليها دون استخدام الطرق الإحصائية ، وكذلك الحال فيما يتعلق باستخدام المقارنة أو الدراسات المقارنة وحيث لا تشكل فى حد ذاتها منهجاً وإنما وسيلة للحصول على معلومات جديدة أو بيانات جديدة توصلنا المقارنة إليها ، وهذا يدفعنا إلى استبعاد هذين الاصطلاحين عن مفهوم المنهج بمعناه الضيق وإدخالها ضمن مفهوم طرق الحصول على البيانات .

منهج المسح الاجتماعى

تعتبر فكرة المسح الاجتماعى من أقدم الأفكار التى طرأت على ذهن الإنسان ، فما كتابات هيرودوت التى كتبها فى القرن الخامس قبل الميلاد عن ملوك مصر وما كتبه عن سكان مصر وعلاقتهم بالأرض وصفاتهم وعاداتهم وعقائدهم الدينية وحروبهم وثوراتهم ومشاكلهم والتفسيرات التى حاول أن يخرج بها من كل ذلك سوى صورة بدائية من صور المسح الاجتماعى .

أما المسح الاجتماعى بمعناه الحديث فلم يظهر إلا فى منتصف القرن الثامن عشر على يد عدد من المصلحين الاجتماعيين فى إنجلترا وفرنسا والذين اتخذوا هذا المسح أساساً للإصلاح فى مجتمعاتهم . وسنستعرض فى الصفحات المقبلة عدداً من هؤلاء السباقين فى المسح الاجتماعى .

جون هوارد John Howard (١٧٢٦ – ١٧٩٠) :

يعتبر هوارد أول من حاول جمع بيانات بطريقة موضوعية منظمة ، وأول من استخدم عدداً متنوعاً من الوسائل الميدانية فى البحث ، وذلك حينما فكر فى إصلاح السجون والمسجونين فى إنجلترا . وقد قامت دراسته على أساس جمع الحقائق والأرقام من السجون والمسجونين مباشرة ، فأحصى عدد السجون ودوّن أسماء المسجونين وأماكن السجون التى يوجدون بها وتاريخ سجنهم وعدد السجانين ومساعديهم ، وكانوا لايتقاضون أجراً على عملهم اكتفاء بما يحصلون عليه من رسوم من المسجونين ، كما سجل المدد التى قضاها المسجونون فى سجونهم وعدد المسجونين الذين برئوا ثم عجزوا عن ترك السجن لعدم مقدرتهم على دفع ما عليهم من رسوم للإفراج عنهم ، كما أحصى هؤلاء الذين كانوا يعانون من سوء النواحى الصحية وسوء التهوية والقيران والحشرات ، كما حصل على إحصاء بعدد الزنزانات التى كانت تحت الأرض وعدد المسجونين الذين تأثروا بها ، وكان جون هوارد يقابل المسجونين بنفسه ويسجل شكاواهم المختلفة .

وعندما ظهر هوارد فى سنة ١٧٧٤ أمام إحدى لجان مجلس العموم يقدم إليها

النتائج التى انتهى إليها حصل على تأييدها الكامل حتى لقد صدر فى الحال تقريباً قانون بالإفراج عن المسجونين الذين كانت قد انتهت مدة سجنهم أو الذين كانوا قد برئوا ، كما صدر قرار بتحديد مرتبات للسجانين وبالتفتيش عليهـــا والاهتمام بالمسجونين صحياً .

وفى سنة ١٧٧٥ قام هوارد بما يمكن أن يسمى بالدراسة المقارنة لأحوال السجون فى عدد من البلاد الأوربية، وقد اهتم فى دراسته بنوع خاص بتأهيل المسجونين اجتماعياً وتوجيههم دينياً وتعليمهم عدد من الصناعات . وقد ظهرت هذه الدراسة فى سنة ١٧٧٧ بعنوان :

The State of The Prisons in England and Wales, with Preliminary Observation, and an account of some Foreign Prisons.

وكانت الطرق التى استخدمها هوارد فى بحوثه ذات أثر عميق ليس على أتباعه فحسب ، بل على كل الدراسات التى قامت بنوع خاص على السجون ، وقد اقتنع تماماً بضرورة الحصول على البيانات من مصدرها مباشرة ، وقد توفى أثناء دراسته لحالة السجون فى روسيا .

فردريك لو بلى Frederic Le Play (١٨٠٦ — ١٨٨٢) :

أحد المصلحين الاجتماعيين الفرنسيين . وقد بدأ حياته كأستاذ لعلم المعادن فى فرنسا وكانت لديه بذلك الفرص الكثيرة لمصاحبة مهندسى التعدين فى كثير من البلاد الأوربية والآسيوية ، وقد بدأ فى سنة ١٨٢٩ بدراســـة التقدم الفنى والانتعاش الاقتصادى ووضع العمال فى أوربا ونجح فى التوفيق بين التدريس وهندسة المناجم والبحث ، وهذه الخبرات المتنوعة مكنته من الحصول على معلومات كثيرة أفادته فى بحوثه كما مكنته من عمل الاتصالات لتنفيذ إصلاحاته فيما بعد .

وفى منتصف القرن التاسع عشر قام لوبلى بنوع جديد من الدراسات الاجتماعية وذلك حينما اختار الأسرة كوحدة لدراسة آثار التصنيع على مجتمعات العمال فى فرنسا أولا ثم فى البلاد الأوربية الأخرى فيما بعد . وكان اختياره للأسرة كوحدة لدراسته أنها أبسط الوحدات الاجتماعية وأعمها انتشاراً ، كما اختار ميزانية الأسرة مادة للتحليل نظراً لدلالتها الواضحة من حيث الأسرة ووظائفها .

ولقد اقتنع لوبلى أن تنظيم ووظائف أية أسرة تتأثر بعوامل كثيرة فمثلا من أهم وظائف الأسرة الحصول على وسائل معيشة أفرادها ، وإذن يتحدد التنظيم فى داخلها تبعاً لطرق الحصول على وسائل المعيشة (العمل) ، إلا أن هذه الطرق فى الوقت نفسه تحدها البيئة التى تعيش فيها الأسرة (المكان) ، ذلك لأن صفات البيئة تحدد العمل الذى تحصل الأسرة عن طريقه على وسائل معيشتها . وعلى هذا الأساس حدد لوبلى طريقته فى الدراسة والتى تنحصر فى ثلاثة أسس هى : المكان والعمل والأسرة ، وعلى ذلك فالوحدة الاجتماعية وهى الأسرة ترتبط بالبيئة الجغرافية والعمل .

ولم تقتصر دراسة لوبلى على العمال فى قطر واحد ، وإنما فى عدد من الأقطار الأوربية بقصد الوصول إلى حقائق عامة عن الأسرة كأساس لتعميمات علمية كأن يكتشف الظروف الاجتماعية التى تعمل أولا على الاستقرار الاجتماعى والانتعاش الاقتصادى فى دولة معينة .

ولما كانت هذه الدراسات التفصيلية لدولة بأكملها تعتبر عملا شاقًّا جدًّا . فقد اتجه لوبلى إلى اختيار عدد معين من الأسر كوحدات أساسية تكون مجالا لدراسته وقد عمل على أن يكون اختياره لهذه الأسر بطريقة تكون ممثلة وصالحة للمقارنة والتحليل ثم التعميم فى النهاية .

ولقد اقتصر لوبلى على أسر العمال لأنه كان يعتقد أن العمال يشكلون أغلبية الأمة ويكونون العناصر الممثلة للسكان ، كما أنهم كطبقة لهم بحكم حياتهم وعملهم أهميتهم فى إنتاج الدولة التى ينتمون إليها عن أية جماعة أخرى ، هذا علاوة على أن العلاقات التى تربط العمال بالطبقة العليا هى فى المجتمع فى كل مكان أساس وجود هذه الطبقة .

أما من ناحية اهتمام لوبلى بدراسة ميزانية الأسرة فيرجع إلى اعتقاده بأن كل ما يتعلق بتصرفات أسرة العامل يعود إلى الدخل . وعلى ذلك فقد اهتم بمصادر هذا الدخل ، وأوجه صرفه وصلة ذلك بمجموع هذا الدخل . كما افترض أن هناك صلة قاطعة ليس فقط بين عادات الاستهلاك والنشاط الاجتماعى بل بين السياسة الاجتماعية للدولة أيضاً فإذا ما سادت عادات التبذير والإنفاق على غير الضروريات أثناء فترات الرخاء كان لذلك رد فعل سيىء على العمال ، وهذا يتبعه بالضرورة تخطيط سياسات اجتماعية جديدة .

وكان لوبلى فى دراسته على اتصال دائم بالأسر التى اختارها لهذه الدراسة ، فكان يقيم بينها كشخصية مجهولة لفترات قد تطول حتى يحصل على المعلومات الكاملة التى يريدها متبعاً فى ذلك منهج بحث الحالة عن طريق الدراسة الكاملة لطرق ومستوى معيشة الأسرة . كما كان فى سبيل هذه الدراسات يشترك فى كل نشاطها سواء ما كان متعلقاً منها بالنشاط اليدوى أو الدينى أو الثقافى أو الاجتماعى .

ولقد شعر لوبلى مبكراً بالحاجة إلى طرق الدراسة العلمية الحقلية إذ بدونها ما كان يأمل فى التحليل السليم ، ويمكن أن نجمل الطرق التى اتخذها فى دراسته فيما يلى :

١ – وضع بيان تفصيلى عن تكوين الأسرة ووضعها الاجتماعى وعاداتها اليومية فى العمل واللعب والاستهلاك وحالة المسكن وما يحيط به والمظهر الخارجى للأسرة من ناحية علاقاتها ووعيها الصحى وتصرفاتها الدينية .

٢ – المقابلة الشخصية Personal Interview كأداة لمعرفة ما يريد أن يعبر القلب عنه .

٣ – الاستبيان Questionnaire كوسيلة للمطابقة على ما جاءت به المقابلة الشخصية من نتائج .

٤ – المراجعة والفحص Checking and Verifying للبيانات التى يحصل عليها من مصادر مختلفة ، ولقد استغل لهذه الغاية دفاتر الحسابات ، فكان يختار عدداً من ربات البيوت اللاتى يحتفظن بدفاتر لحساباتهن المنزلية خلال فترة من الزمن ، وكان يعتبر هذه الدفاتر وثائق قيمة إن كانت دقيقة .

أوضح لوبلى كل ذلك فى كتابه الضخم الذى نشره بعنوان « العمال الأوربيون » Ouvriers Europeens ، وقد جاء هذا الكتاب بأجزائه الستة نتيجة دراسة شاقة لأسر العمال خلال فترات زادت على عشرين عاماً وقد نشره فى باريس لأول مرة فى سنة ١٨٥٥ .

وواضح مما سبق أن لوبلى قد جمع بين طريقة بحث الحالة وطريقة القياس الإحصائى كما جمع بين المقابلة الشخصية والاستبيان فى جمع البيانات ، كما أضاف إلى ذلك استخدام دفاتر الحسابات ووسائل المراجعة وإعادة المراجعة . وقد ساهم لوبلى بكل هذا فى وضع أسس البحث العلمى الاجتماعى . ولم يكن دور لوبلى مقصوراً

على مجرد اكتشاف هذه الوسائل الجديدة للدراسة ، بل تعداه إلى استخدام هذه الوسائل بطريقة ناجحة .

ولقد اتجهت دراسة لوبلى اتجاهين يختص الأول بطرق البحث فى التحليل الاجتماعى ، واختص الثانى بالإصلاح الاجتماعى ، وقد نشر سنة ١٨٦٤ كتاباً من جزأين بعنوان La reforme sociale en France اقترح فيه برامج عملية لرفع المستوى الاجتماعى .

ولقد طبقت طريقة لوبلى فى الدراسة فيما بعد على الجماعات الريفية أيضاً ، كما تشعب هذا النوع من الدراسة إلى شعب مختلفة تتصل بالاجتماع والاقتصاد والجغرافية ، وهكذا استمرت مدرسته فى عملها بعد أن أخذت تتسع باستمرار وتكونت لها عدة مدارس فى جهات مختلفة من العالم ساعدت على اتساع أفق البحث الاجتماعى . ومن المدارس التى اتبعت طريقته فى إنجلترا كلية لندن الاقتصادية London School of Economics كما تبعته فى فرنسا جمعية لوبلى Le Play Society .

شارلز بوث Charles Booth (١٨٤٠ — ١٩١٦) :

يعتبر بوث واحداً من أتباع لوبلى فى إنجلترا ، وقد اهتم أساساً بدراسة الفقر فى قطاع واحد من المجتمع وهو القسم الشرقى من لندن The east side of London ؛ وقد بدأ دراسته فى سنة ١٨٨٦ ونشرها بعنوان :

Life and Labour of The People of London.

وقد ظهر الجزء الأول منها فى سنة ١٨٩٢ والجزء السابع عشر والأخير فى سنة ١٨٩٧ وتعتبر دراسته هذه أساساً لدراسة حياة المجتمعات الحديثة .

ويقول بوث فى مقدمة كتابه بأنه قام بمحاولة لإظهار العلاقة العددية التى يحملها الفقر والبؤس وسوء الخلق وبين مصادر الكسب المنظمة ووسائل الراحة ووصف الظروف العامة التى تعيش كل طبقة فى ظلها[1].

وكان المجتمع الإنجليزى ورجال الدولة على علم تام بالفقر الشديد الذى كان سائداً

---

(١) الجزء الأول صفحة ٦ .

فى ذلك الوقت وخاصة بعد أن نشر برستون W. Preston فى سنة ١٨٨٣ كتابه بعنوان The Bitter of Outcast ، وقد راج هذا الكتاب فى المجتمع الإنجليزى رغم ما تميز به من أسلوب روائى ومبالغة كبيرة فى التصوير . وقد كان هذا الأسلوب الأدبى غير المدعم بالحقائق الموضوعية سبباً فى ألا يعتمد عليه كأساس لأى إصلاح حكومى . ولقد تأثر بوث بما كتبه برستون وصمم على أن يحصل على حقائق موضوعية غير متحيزة تتعلق بجزء كبير من سكان لندن . وبدأ دراسته على هذا الأساس ليرى نصف سكان لندن كيف يعيش النصف الآخر إذا ما رفع الستار عن البؤس والفاقة عن طريق الحقائق وعرضها على البرلمان كخطوة أولى لعلاج ما فى المجتمع من شرور.

ولقد استعان بوث لهذه الغاية بعدد كبير من المحققين الاجتماعيين والاقتصاديين من أمثال بياتريس بوتر (وب) Peatrice Poltter (Webb) وأوكتافيا هيل Octavia Hill وجراهام بالفور Graham Balfour وكلارا كلت Collet ، كما استعان بخدمات ضباط الحضور فى المدارس الذين كانوا بحكم عملهم يزورون المنازل فى كل أحياء لندن لسؤال الأسر التى لديها أطفال فى سن التعليم . وكانت مقابلاته الشخصية لهؤلاء الضباط طويلة حتى لقد استغرق بعضها عشرين سرعة . وقد خرج من هذه المقابلات ، بسجلات للمعلومات أطلق عليها مناجم المعلومات (Mines of informations) كما كان موظفوه ومعاونوهم يراجعون ما يجمع من حقائق على أساس زيارات شتى للأحياء والشوارع والبيوت . وقد بلغ عدد الأسر التى درست حوالى نصف أسر الطبقة العاملة .

ولقد عزز بوث المعلومات التى حصل عليها بواسطة المؤتمرات التى كان يعقدها والاستبيانات والتقارير والملاحظة ودراسة الاتحادات التجارية والأحاديث مع كبار الموظفين والمدرسين وأصحاب الأراضى ومحصلى الإيجارات ومفتشى الصحة والوزراء وضباط البوليس وغيرهم .

وعلى الرغم من أن بوث اقتصر فى بحثه على جماعة بعينها فى مدينة واحدة إلا أن دراسة قد اهتمت بكل التجمعات الاقتصادية والاجتماعية والجنسية ، وبكل العناصر التى تؤثر فى حياتهم وعملهم كالدخل وساعات وظروف العمل والمسكن ومستوى المعيشة وعدد الأطفال ، وعددهم بالنسبة لنوع المسكن واتساعه ، ونوع ومدى تردد الأمراض ونشاط وقت الفراغ والأندية وعضوية الاتحادات وغير ذلك من متغيرات ، كما اهتم

بدراسة العلاقة بين الدخل وتكاليف المعيشة ، وأثر ذلك على مستوى المعيشة والعمالة عامة . وقامت الدراسة كلها على أساس بيانات ثابتة لجزء معين من سكان لندن فى وقت معين ، ويقول فى ذلك :

"My principal aim is still confined to description of things as they are. I have not undertaken to investigate how they came to be, nor except incidentally, to indicate whither they are tending and only to a very limited extent, or very occasionally, has any comparison between made with the past. These points of view are deeply interesting and not to be ignored, but are beyond the scope of my work."(1)

ولقد قام بوث بدراسات مقارنة بين الازدحام والفقر الواضح ، وبين الازدحام والكسب ، وبين طول ووزن تلاميذ المدارس فى سن معينة وفى مستوى اقتصادى معين ، وبين الدخل عند الجماعات الحرفية المشتغلة وبين مستوى معيشتهم ، وبين عادات الأسر التى تستطيع الاستعانة بالخدم بالأسر التى لا تستطيع ذلك ولكى تكون دراسته صورة معبرة عن الوضع الاجتماعى موضوع الدراسة فقد درس الأسر وحالة الشوارع والمنظمات الاجتماعية التى تضم هذه الأسر أعضاء فيها . كما اهتم فى سبيل توضيح كل ذلك بالجداول الإحصائية واللوحات والرسوم البيانية والصور الفوتوغرافية التى تصور مختلف نواحى حياتهم هذا وقد تميز بحثه بأسلوب أدبى جميل يمكن أن نلمسه فى هذا الجزء الذى يصف فيه أحد الشوارع St. Hebr فيقول :

"An awful place, the worst street in the district. The inhabitants are mostly of lowest class and seem to lack all ideas of cleanliness or decency... the children are rarely brought up to any kind of work, but, loaf about, and no doubt form the nucleus for future generation of thieves and other bad characters. The property is all very old and it has been patched up and altered until it is difficult to distinguish one house from another. Small backyards have been utilized for building additional tenements. The property throughout is in very bad condition, unsanitary and crowded : and it is stated (as a suggestive reason why so little has been in the way of remedy) that until very recently the rent collector

(١) شالزبوث : المصدر السابق ص ٥ .

of the property was a brother of the sanitary Inspector. A number of the rooms are occupied by prostitutes of the most pronounced order".(١)

ولقد نجح بوث فى الجمع بين الطريقة الإحصائية وطريقة بحث الحالة ، وكان يقول لموظفيه : « يجب ألا نهمل الفرد The Case إذا كنا نفكر فى النسبة المئوية كما يجب ألا ننسى النسبة المئوية إذا كنا نفكر فى الفرد » .

ولكى يطمئن بوث إلى ما كان يعبر عنه الناس من ناحية صدقهم أو كذبهم ، كان يمر بنفسه وسط بعض الأحياء كشخصية غير معروفة ، كما كان ينزل بالأجر عند بعض أسر العمال الفقيرة ، يشاركها حياتها ومواضع اهتمامها وعواطفها وأوقاتها وآمالها ، وكان خلال ذلك كله يدرس هذه الأسر عن قرب .

وتعتبر دراسة بوث على هذا الأساس السابق أكثر من تحقيق فى ظروف الطبقات العاملة ، فقد درس ومسح وصنف المهن والخلافات التى تقع بين العمال وأسباب وأشكال فضها ، كما درس عوامل التجمعات الأجنبية ونظمها القومية والثقافية والتغيرات الجسمية فى الجيل التالى ، كما كتب عن النشاط الدينى والكنائس والمبشرين ونشاطهم عن الدين ومشاكل الشباب والدين والإحسان ، كما قدم حقائق هامة عن منظمات الضبط الاجتماعى وعن إدارات البوليس وما تتبعه من إجراءات وعن المجالس البلدية ونشاطها .

ولقد حاول بوث فى أول الأمر أن يستعين بالإحصاءات الرسمية التى كانت تذيعها التعدادات كمصدر من مصادر المعلومات عن الدخل والحرف وعدد الحجر . إلا أنه سرعان ما تجنب هذه الإحصاءات لأنها فى نظره لم تكن سوى بيانات عددية جامدة .

روانترى Seebohm Rowntree :

قام روانترى بدراسة مفصلة لظروف الطبقة العاملة فى مدينة يورك بإنجلترا ، وقد بدأ هذه الدراسة فى سنة ١٨٩٩ ونشر نتائجها فى سنة ١٩٠١ بعنوان Poverty : Study of Town Life وكان مجال بحثه أضيق من مجال بحث بوث ، ولذلك فقد اهتم روانترى

---

(١) شالزبوث : نفس المصدر ١٠ – ١١ .

بتفصيلات أكثر ، كما شمل بحثه على هذا الأساس كل الأسر العاملة فى يورك .

وفى دراسته للفقر قسم رونترى الأسر بحسب دخلها الأسبوعى إلى فئات أربع هى :

١ – أقل من ١٨ شلناً . ٢ – من ١٨ – ٢١ شلناً .

٣ – من ٢١ – ٣٠ شلناً . ٤ – أكثر من ٣٠ شلناً .

وهذا التقسيم بالنسبة لأسرة معتدلة العدد تتكون من زوج وزوجته وطفلين أو ثلاثة أو أربعة ، فإذا كانت تعول أقل من طفلين انتقلت إلى الفئة التى تليها وإذا كان لديها أكثر من أربعة أطفال انتقلت إلى فئة أدنى .

وقد اعتبر رونترى أن الأسر التى تدخل ضمن الفئة الأولى (أقل من ١٨ شلناً أسبوعياً) إنما تعيش فى مستوى أقل من الفقر الأولى Primary Poverty ذلك بعد أن حدد لهذا المستوى ١٨ شلناً أسبوعياً ، وبعد أن عرف الفقر الأولى بأنه المستوى الأدنى الذى يتمكن الإنسان معه من الاحتفاظ بكفاءته الجسمية .

"My primary poverty line represented the minimum sum on which physical efficiency could be maintained, it was a standard of bare subsistence rather than living."(1)

وقد افترض رونترى هذا المستوى على أساس تحليل القيمة الغذائية وحساب الوحدات الحرارية ، وتقدير كمية وقيمة الغذاء الضرورى لتوليد أدنى طاقة حرارية ممكنة للعامل وأسرته ، ثم أضاف إلى ذلك النفقات اللازمة للضروريات كإيجار السكن والملبس ولوازم المنزل . وقد اعتبر رونترى هذا المستوى الحد الأدنى للمعيشة وأن أية أسرة لا تمكنها ظروفها من الوصول إلى هذا المستوى إنما تعيش تحت مستوى الفقر الأولى . وقد وضح رونترى ذلك بإعطاء صورة لأسرة تعيش فى فقر أولى بقوله :

A family living at the primary poverty level, "must never spend a penny on railway fare or omnibus. They must never go into the country unless they walk. They must never purchase a half penny newspaper or spend a penny to buy a

---

(١) B. Seebohm Rowntree, Poverty and Progress (Bristol, 1942) p. 102.

ticket for a popular concert. They must write no letters to absent children, for they cannot afford to pay the postage. They must never contribute anything to their church or chapel, or give any help to a neighbour which costs them money. They cannot save, nor can they join sick club or trade union, because they cannot pay the necessary subscriptions. The children must have no pocket money for dolls, marbles or sweets. The father must smoke no tobacco, and must drink no beer. The mother must never buy any pretty clothes for herself or for her children, as for the family diet, being governed by the regulation, nothing must be bought but that which is absolutely necessary for the maintenance of physical health, and what is bought must be of the plainest and most economical description. Should a child fall ill it must be attended by the parish doctor, should it die, it must be buried by the parish. Finally, The wage-earner must be never absent from his work for a single day. If any of these conditions are broken, the extra expenditure involved is net, and can only be met by limiting the diet, or, in other words, by sacrificing physical efficiency".(١)

وفى سنة ١٩٣٦ قام روانترى بمسح آخر لمدينة يورك نشر نتائجه فى سنة ١٩٤١ بعنوان « الفقر والتقدم » Poverty and Progress ، وقد أراد بهذا البحث أن يعيد التحقيق الأول ليلمس مدى التغير فى حياة السكان خلال الفترة من سنة ١٨٩٩ إلى سنة ١٩٣٦، والتى تميزت بكثير من وسائل الإصلاح الاجتماعى ، وكان بحثه فى هذه المرة أيضاً شاملا لجميع الأسر العاملة ، وكان عددها ١٦٣٦٢ أسرة .

وكما حدد خطّاً للفقر فى بحثه الأول حدده فى بحثه الثانى أيضاً ، ولكنه رفع المستوى فى هذه المرة إلى ٤٣,٥ شلناً فى الأسبوع لأسرة تتكون من زوج وزوجته وثلاثة أطفال ، كما استبعد أجر السكن من هذا التحديد .

وقد وجد راونترى فى بحثه الثانى أن عدد الأسر التى تعيش فى فقر أولى قد تناقص بنسبة تزيد على ٥٠٪ وأن مستوى المعيشة قد ارتفع بنسبة ٣٠٪ عنه فى سنة ١٨٩٩ وقد اعتبر هذا التغير نتيجة لعوامل ثلاثة هى انخفاض حجم الأسرة وزيادة الأجور ونمو الخدمات الاجتماعية .

ويهمنا فى دراسة راونترى طرقه التى استخدمها فى البحث والتى كان سباقاً بها فى

(١) نفس المرجع السابق ١٠٣ .

دراسته ظاهرة الفقر ومستوى المعيشة بطريقة موضوعية علمية ، كما انفرد راونترى أيضاً بتحقيقه الشامل لجميع الأسر ، وقد مكنه ذلك من دراسة ناحية هامة تتعلق بالعينات ، وذلك حينما قارن النتائج التى حصل عليها عن طريق البحث الشامل بالنتائج التى كان يحصل عليها لو أنه استخدم فى بحثه عينة بدلا من المجموع . وفى سبيل ذلك رتب راونترى الأسر التى بحثها وعددها ١٦٣٦٢ أسرة فى جداول ، ثم اختار عشرها على أساس اختيار منزل من كل عشرة منازل وحصل بذلك على عينة قدرها ١٦٣٦ أسرة ، ثم أعاد الاختيار ثانية على أساس منزل من كل عشرين ، ثم على أساس منزل من كل ثلاثين ، ثم من كل أربعين وخمسين منزلا .

قارن روانترى النتائج التى حصل عليها عن طريق استخدام كل من هذه لعينات السابقة بالنتائج التى حصل عليها عن طريق استخدام المجموع ، وذلك لكى يوضح مدى إمكان الاعتماد على طريقة العينات فى البحث وقد وجد بعد ذلك أن الفرق بين النتائج التى حصل عليها عن طريق دراسة المجموع لا تختلف كثيراً عن تلك التى حصل عليها عن طريق العينات ، وقد مثل لذلك بأن دراسة المجموع قد انتهت إلى أن ١٧١٨٥ شخصاً بمعدل ٣١,١٪ من الطبقة العاملة كانت من ناحية دخلها تعيش فى مستوى يقل عن الحد الأدنى ، بينما كانت النتائج التى حصل عليها عن طريق العينات المختلفة تتراوح بين ٣١,١ ٪ و ٣٣,١٪ والفرق كما يرى غير كبير إجمالا[1] .

نمو حركة المسح الاجتماعى فى الولايات المتحدة :

بدأت حركة المسح الاجتماعى فى الولايات المتحدة كما بدأت فى إنجلترا على أساس عملى وبتوجيه شبه علمى . ومن أبرز من قادوا هذه الحركة جاكوب ريس Jacob Riis وذلك عندما قام ببحثه الذى نشر فى سنة ١٨٩٠ بعنوان « كيف يعيش النصف الآخر » "How the Other Half Lives" والذى جمع فيه كثيراً من الحقائق عن ظروف المساكن فى نيويورك وقد صورها ووصفها بطريقة روائية حية وضح فيها قذارة هذه المساكن ونقص الوعى الصحى فى أغنى المدن الأمريكية ، ثم نشر فى سنة ١٩٠٢

---

(١) راونترى : نفس المرجع السابق ص ٤٧٩ .

بحثاً آخر بعنوان « معركة مع الأحياء المتخلفة "Battle with the Slums" صور فيه تلك الأحياء التى سماها النصف الآخر .

وكان للصحافة دور هام فى نمو حركة المسح الاجتماعى بعد أن اهتمت بهذا النوع من الدراسات الذى وجدت فيه مادة هامة لكتابتها . ومن هذه الصحف The New York Times, North American Review وقد واصلت هذه الصحف نشر مقالاتها لمدة طويلة من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٦ عن المجتمع الأمريكى وتدهوره والجريمة وحالة السجون والحالة الصحية مما كان له أثر كبير على الرأى العام الذى أخذ بما كان ينشر فى الصحف عن المجتمع الذى يعيش فيه ، وكان هذا مشجعاً على ظهور عدد كبير من الكتاب الذين ساهموا فى هذه الحركة من أمثال :

1. Robert Woods, the City Wilderness, 1898.
2. Robert Hunter, Tenements Conditions in Chicago 1901.
3. Lincoln Steffens, The Shame of the Cities, 1904.

وعلى الرغم من أن كل هذه الدراسات لم تكن تتميز بالطابع العلمى الكامل إلا أن أثرها كان كبيراً فى توجيه وتنظيم الدراسات العلمية الاجتماعية فيما بعد إذ أنشئ على أثر ذلك فى سنة ١٩٠٧ مؤسسة راسل سيج The Russel Sage Foundation بقصد تحسين ظروف المعيشة فى الولايات المتحدة ، كما اهتمت علاوة على دراسة الظروف الاجتماعية بطرق البحث وتفسير النتائج .

ويعتبر مسح بتسبرج Pittsburgh Survey أول البحوث الشاملة التى استخدمت فيها طرق البحث المنظمة فى دراسة المجتمعات ، وقد بدأ فى سنة ١٩٠٩ بإشراف بول كيلوج Paul Kellogg مدير المؤسسة بقصد بحث تأثير التحضر ، وقد رأى كيلوج فى مدينة بتسبرج معملا ومركزاً لعملية التحول الصناعى . وقد اتجه البحث إلى معرفة القوى التى تؤثر فى حياة عمال الصلب ومعرفة عوامل نمو المدينة وأثر هذا النمو فى حياة العمال ثم معرفة مدى ملاءمة الهندسة الإنسانية مع الهندسة الصناعية فى منطقة الصلب .

وكان مسح بتسبرج عملا كبيراً درست فيه أغلب مظاهر الحياة فى المدينة بواسطة عدد كبير من الباحثين الاجتماعيين المعروفين والعملاء المتخصصين الذين استقل كل

منهم بدراسة ناحية معينة كالتفتيش على المصانع والمنازل والبوليس والجريمة والعمال ، وقد نشرت نتائج البحث فى سنة ١٩١٤ فى ستة مجلدات اختص كل منها بناحية من النواحى .

وفى سنة ١٩١٤ قامت المؤسسة بإشراف مديرها هاريسون Shelby Harrison بمسح سبرنجفلد بولاية الينويز بقصد دراسة الظروف الاجتماعية لمدينة أمريكية صغيرة (كان سكانها حوالى ٥٢ ألفاً سنة ١٩١٠) ، ونشرت نتائج هذا البحث فى سنة ١٩٢٠ بعنوان : Social Conditions of an American City

وقد تعمق هذا البحث فى دراسة النواحى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والصحية والإدارية والقانونية فى مدينة سبرنجفلد ، كما تميز القائمون فى البحث بنجاحهم فى إشراك المجتمع نفسه معهم وإثارة المواطنين للعمل ، حتى لقد تطوع منهم فى البحث حوالى ٩٠٠ فرد يمثلون ١٧ هيئة عامة وخاصة ، لقد حدث هذا نتيجة لحملة الدعاية التى قام بها هاريسون قبل بداية العمل الحقلى ، كما واصل هذه الحملة طوال فترة البحث ، وقد مكنه ذلك من إثارة الاهتمام بالبحث وضمان تعاون المجتمع معه فى نواح كثيرة أهمها الحصول على البيانات الصحيحة وتنفيذ توصيات البحث .

وكان نشر نتائج بحث بتسبرج وسبرنجفلد سبباً فى إثارة اهتمام المجتمعات الأمريكية بفكرة المسح الاجتماعى وقبولها كطريقة فعالة فى دراسة وتوجيه الحياة الأمريكية . وقد وصلت هذه الحركة إلى قمتها فى سنة ١٩٢٨ حينما شمل المسح الاجتماعى عدداً كبيراً من المشاكل الاجتماعية فى كل ولاية تقريباً ، ومن أهمها مسح مدينة يورك الذى نشرت نتائجه فى عشرة مجلدات فى الفترة من ١٩٢٧ إلى ١٩٣١ ومسح الجريمة فى ميسورى سنة ١٩٢٦ The Missouri Crime Survey .

ويهمنا ونحن نستعرض حركة المسح الاجتماعى فى الولايات المتحدة أن نشير إلى تلك الدراسات ذات الطابع الجنسى Racial والتى تتميز بأنها كانت أول البحوث التى اشترك فيها علماء الاجتماع على مدى واسع وبطريقة قيادية ، وقد اهتمت هذه البحوث بدراسة العزلة Segregation والصراع الجنسى Race Riots والتعصب الثقافى والصناعى Educational and Industrial Discrimination ، كما اهتمت بدراسة العناصر الاجتماعية النفسية للخوف والتوتر الداخلى الذى يسود الأفراد ويعمل على انقسام الجماعات .

ومن أهم هذه البحوث مسح العلاقات الجنسية على شاطئ المحيط الهادى The Pacific Race Relations Survey وقد أشرف عليه روبرت بارك Robert Park واستمر من سنة ١٩٢٥ إلى ١٩٢٩ . وقد درس بارك فى هذا البحث دور العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية والجيولوجية ومشاكل الأجناس المتنافسة ، كما استخدم فى دراسته وسائل جديدة فى التحقيق والتحليل الاجتماعى وذلك حين اعتمد البحث أساساً على :

(ا) الوثائق الشخصية كالخطابات والمذكرات وتواريخ الحياة وخاصة لهؤلاء الذين اندمجوا فى الصراع أو شاهدوه ، وذلك بقصد توضيح كيفية تكون مناطق التوتر والمشاكل الناتجة عن بداية اتصال الأجناس بعضها ببعض وما نتج عن ذلك من اتجاهات وتصرفات .

(ب) التقارير الرسمية والإحصائيات عن نشاط وتجارب الجماعات المختلفة لوصف ما يدور من صراع جنسى وشعور الأجناس نحو بعضها وسبب هذا الشعور .

(حـ) ذاكرة كبار السن من المستوطنين وأقوال أصحاب الأعمال ورجال التبشير وغيرهم ممن شعروا لفترة معينة من الزمن بردود الأفعال التى تحدث بين الجماعات .

(د) طريقة بحث الحالة للمجتمعات ، حضرية وريفية والتى سكنتها الأجناس لتوضيح تأثر هذه المناطق بوصول المهاجرين إليها ونموهم فيها .

(هـ) طريقة المقابلة الشخصية لتسجيل كل ما يمكن تسجيله عن لسان المختبرين أنفسهم وخاصة العمال والفلاحين وغيرهم ممن كانوا عنصراً فى الصراع الجنسى ، وذلك لتوضيح شعورهم واتجاهاتهم ونقط تبريز هذا الشعور وهذه الاتجاهات[1] .

هذه الاتجاهات والاعتبارات فى البحث كانت جديدة بالنسبة للمسح الاجتماعى وخاصة تلك التى اتجهت نحو دراسة العلاقات الإنسانية والمواقف الاجتماعية والرأى العام وكيفية تكون الصراع الجماعى والشخصى والمظهر الاجتماعى النفسى للاتصالات فى المجتمع مما أكد اعتبار المجتمع نسيجاً اجتماعياً توجد فيه أصول المشاكل الاجتماعية .

---

(١) R. Park. The Race Relations Survey in the Pacific Coast, Mid-Pacific Magazine (Nov. 1925) pp. 200 - 205.

المسح الاجتماعى لدائرة باب الشعرية

قامت به جامعة عين شمس فى سنة ١٩٦١ وأسندت مهمة الإشراف عليه للأستاذ الدكتور حسن الساعاتى . والبحث يهدف إلى التعرف على الحقائق الخاصة بالموضوعات التى من شأنها إعطاء فكرة واضحة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان دائرة باب الشعرية مع التركيز على دراسة الأسرة من ناحية حجمها ومهن أفرادها ، والحالة التعليمية والاقتصادية والسكنية . وهل هى وافدة إلى القاهرة ، كما كان البحث يهدف إلى التحقق من كون دائرة باب الشعرية منطقة جذب للمهاجرين إلى مدينة القاهرة ، وقد تضمن هذا الهدف دراسة الدائرة بوصفها متخلفة عمرانياً فى معظم أجزائها ، وكل ذلك كان يتم تمهيداً لعمليات لاحقة من التخطيط والإصلاح .

ولما كانت الدائرة تشمل وقت إجراء البحث حوالى ٣٠ ألف أسرة كان لا بد من اختيار عينة ممثلة ، وفعلا قام المسح على أساس دراسة عينة قدرها ٣٪ ، ويكون عدد الأسر التى قامت عليها الدراسة بذلك ١٠٠٠ أسرة ، ولقد اختيرت العينة بالطريقة العشوائية على أساس التمثيل النسبى لعدد الأسر فى كل شياخة من الشياخات الست عشرة ، كما استخدمت المقابلة الشخصية للحصول على البيانات التى تضمنتها استمارة المسح .

وقد انتهى المسح بعدد من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — كثرة المهاجرين الوافدين إلى الدائرة حتى لقد بلغوا ٤٠ ٪ من مجموع سكانها ، وقد ثبت بذلك أن الدائرة تشكل منطقة جذب للمهاجرين من الريف .

٢ — وفرة المؤسسات الاجتماعية والثقافية والدينية والصحية فى الدائرة .

٣ — قلة المرافق وسوء الحالة السكنية وارتفاع إيجار المساكن وقذارة الشوارع وكثرة المقاهى والورش .

٤ — عدم وجود مياه جارية فى نسبة كبيرة من المساكن تصل إلى خمس عددها ، وكذلك الحال بالنسبة للمجارى ، وعدم وجود دورات مياه فى ¼ المساكن تقريباً .

وقد أوصى القائمون بالمسح على ضرورة الاتفاق على تخطيط يهدف إلى حل المشكلات الاجتماعية ، وإعادة تنظيم المجتمع على ضوء ما كشفت عنه الدراسة من نتائج مع إعطاء أولوية للشياخات التى ثبت أنها فى مستوى ردىء أو ردىء جداً ، وكان عددها ٧ شياخات من الـ ١٦ شياخة .

كما أوصى المسح بضرورة تحقيق عدد من الاقتراحات مثل إنشاء عدد من المساكن الشعبية ، وإدخال المياه والمجارى والكهرباء ، وتشغيل المتعطلين ، وكانت نسبتهم ١٠ ٪ من عمال الدائرة ويشكلون أكبر فئة عاملة فى الدائرة ، كما أوصى بإنشاء عدد من الجمعيات التعاونية المنزلية ، والعمل على محو الأمية ، وتخفيض الإيجارات وإنشاء الأندية المختلفة وتحديد مواعيد لعمل الورش[١] .

ويهمنا فى عرضنا لهذا النموذج من نماذج المسح الاجتماعى أن نقرر بأنه دراسة قامت أساساً وفى ذهن من قاموا بها على وضع خطط للإصلاح للقضاء على أمراض اجتماعية بذاتها فى منطقة جغرافية معينة .

والآن وبعد أن استعرضنا هذه النماذج من المسح الاجتماعى ، يمكننا أن نستعرض بعض التعاريف التى عرف بها ، ومنها تعريف كليوج وهاريسون وقد عرفاه بأنه الدراسة الاجتماعية التى تهدف أساساً إلى بناء برنامج لإصلاح وتحسين بعض الظروف الجارية ذات الطبيعة المرضية ، وأن هذه الظروف لها حدود جغرافية معينة وذات تأثير اجتماعى معين ، وأنها مما يمكن قياسه ومقارنته بأوضاع متفق عليها كنموذج ، ويقوم المسح الاجتماعى عادة على أساس تعاونى مستخدماً الطرق العلمية فى دراسة المشاكل الاجتماعية التى لها من القوة ما يجعلها تثير الرأى العام والرغبة فى حلها[٢] .

أما أرنست بيرجس Burgess فيرى أن المسح الاجتماعى هو الدراسة العلمية لظروف مجتمع واحتياجاته بقصد تصميم برنامج بنائى لتقدمه الاجتماعى .

"A survey of a community is the scientific study of its conditions and needs for the purpose of presenting a constructive program of social advance."(٣)

---

(١) جامعة عين شمس : المسح الاجتماعى لدائرة باب الشعرية (القاهرة ١٩٦١) . الاقتراحات فى صفحات ٦٧ / ٧٢ .

(٢) Pauline Young, Scientific Social Surveys and Research (N.Y., 1953) p. 20.

(٣) Ernest Burges, Social Survey in American Journal of Sociology, XXI. (Jan. 1916) p. 492.

البحث الاجتماعى :

يختلف البحث الاجتماعى عن المسح الاجتماعى فى أن القائم بالبحث الاجتماعى يهتم علمياً بطبيعة وتغير واتجاه الظواهر الاجتماعية والجماعات والتصرفات الإنسانية بقصد الفهم والتحليل ، ثم الخروج بمبادئ عامة عن هذه الظواهر أو التصرفات نتيجة لدراسة بيانات تختار عادة كنموذج ممثل للظاهرة موضوع الدراسة ، كأن يخرج الباحث مثلا بمبادئ عامة عن الصراع الثقافى أو عملية التمثيل أو الانتحار .

وعلى هذا الأساس يمكن أن نعرف البحث الاجتماعى بأنه الطريقة المنظمة لاكتشاف حقائق جديدة أو التحقق من صحة حقائق قديمة ، وآثارها والعلاقات التى تتصل بها وتفسيرها والقوانين التى تحكمها . وبذلك يهدف البحث الاجتماعى أساساً إلى فهم الحياة الاجتماعية والوصول إلى مقاييس أوسع لضبط التصرفات الاجتماعية .

ويمكننا أن نتصور طبيعة البحوث الاجتماعية إذا استعرضنا عدداً من هذه البحوث ومنها :

بحث ميدلتون Middletown وقام به روبرت لينند وزوجته هيلين لينند ، Robert and Helen Lynd بقصد الكشف بطريقة منظمة عن الحياة فى مدينة اختارها الباحثان نموذجاً للمدن المماثلة ، وذلك عن طريق تسجيل الظواهر التى تشاهد ودراسة تصرف الجماعة . ولهذه الغاية وباستخدام عدد من الطرق المختلفة درس الباحثان عمليات الكسب فى ميدلتون وما يصاحبها من اتجاهات حرفية وأوضاع اقتصادية ومشاكل اجتماعية ، ثم العمليات والاتجاهات التى تتدخل فى تكوين الأسرة كالخطبة والزواج وتربية الأطفال واستغلال وقت الفراغ والعمليات التى تتدخل فى الحياة الدينية كالمعتقدات السائدة والطقوس والاحتفالات الدينية عامة كما تؤثر فى حياة الجماعة ، ثم العمليات التى تؤثر فى حياة المجتمع ونشاطه وأجهزة الضبط الحكومى ، وأخيراً العمليات التى تعمل على تماسك الجماعة والتى تعمل على تفككها .

وقد رأى مؤلفا ميدلتون أن أوجه النشاط الرئيسية هذه فى ميدلتون تمثل فى الوقت نفسه أوجه النشاط الرئيسية فى أى مجتمع إنسانى سواء كان ذلك فى وسط أستراليا أو فى أى مجتمع حضرى معقد . وعلى هذا الأساس فقد افترضنا أنه بدراسة هذه النواحى من

أوجه النشاط الرئيسية للجماعة يكونا قادرين على الإلمام بعمليات التغير عامة ، خاصة وأن المجتمعات الإنسانية عرضة باستمرار لموجات حضارية قوية من نماذج تفرض عليها ما يسود خارجها من مظاهر مادية وغير مادية .

٢ — بحث العصبة ، وقام به فرديك ثراشر Frederick Thrasher ونشر فى سنة ١٩٢٧ بعنوان The Gang وقد اهتم ثراشر فيه بتحليل العصبة أو العصابة وبدورها الاجتماعى باعتباره أثراً سيئاً من آثار المدنية فى المدن . وقد اتجهت دراسته أساساً إلى تحليل العمليات المرتبطة بالعصابات والعوامل التى تختبئ وراء هذا التعصب ، والوسط الاجتماعى الذى يلائم العصابات والذى يهيئ لها وسائل الانتعاش أو النجاح ، ثم العصابة كنوع من التصرف الجمعى وعضو العصابة كنوع من أنواع الشخصية .

وقد استخدم ثراشر طرقاً مختلفة فى دراسته للعصابات ، نشأتها وتنظيمها والصلات الاجتماعية السائدة فيها ودورها فى المجتمع

٣ — بحث قرية روسية فى أمريكا Russian Town in America وقامت به بولين ينج Pauline Young ، وقد اهتمت فيه بدراسة الصراع الحضارى لجماعة تمثل طائفة دينية معينة كانت تعيش قبل هجرتها إلى أمريكا فى منطقة زراعية منعزلة من روسيا وقد قامت الباحثة بدراسة عملية التمثيل Assimilation والأمركة Americanization التى تعرض لها أفراد هذه الجماعة الطائفية ، كما درست أيضاً عمليات المقاومة التى ظهرت بين أفراد الجيل الأول والاستسلام بين أفراد الجيل الثانى وما صاحب ذلك من ظهور معايير جديدة ومثل خلقية جديدة وعادات جديدة فى المعيشة والتفكير ، وتصور الدراسة الصراع بين عوامل الضبط التقليدية القديمة عند الجماعة مع عوامل الضبط الثانوية فى مدينة كبرى ، وانهيار التنظيم الاجتماعى الأول وبداية إعادة تنظيمه من جديد .

ولقد افترضت الدكتورة ينج فى دراستها لهذه الجماعة الروسية The Molkans أنها تمثل إلى حد كبير نفس الأوضاع الاجتماعية والعمليات الاجتماعية والمشاكل عند الطوائف الريفية الدينية الأخرى التى هاجرت إلى مناطق حضرية من الولايات المتحدة وكان هدفها من هذه الدراسة معرفة الصفات الأساسية الطائفية وأثرها على شخصية

أفرادها وطبيعة ومصادر الصراع الحضارى ، والصراع الذى يقوم حول السلطة بين نظم الطائفة والنظم المدنية فى مجتمع أمريكى حضرى ، ثم عمليات انقسام الحياة فى الجماعة وعمليات الإذابة الحضارية للصغار

ولقد تطلبت الدراسة تحديد عدد من الفروض لاختبار صحتها أو عدم صحتها . ومن الفروض التى ثبت صحتها « كلما ازداد تنوع الصلات الحضرية بين صغار المولوكان ازداد الصراع مع حضارتهم الأصلية عمقاً » .

The greater the variety of urban contacts by young Molokans, the greater the intensity of the conflicts with their own culture."

ومن الفروض التى لم تثبت صحتها « سيختفى المذهب الطائفى المولوكانى من أمريكا إلى حد كبير بعد أن ينضج الجيل الذى ولد فى أمريكا أو تعلم فى مدارس أمريكية » .

With the maturity of the American born and American schooled generation, Molokanism in America would largely disappear.

ولقد استخدمت الباحثة فى جمع بياناتها طريقة المقابلة الشخصية كما استخدمت طريقة بحث الحالة والطريقة الإحصائية والمنهج التاريخى ، ونشرت نتيجة دراستها فى سنة ١٩٣٢ فى كتاب بعنوان "Pilgrims of Russian Town" .

٤ — بحث اللاجئين الفلسطينيين فى معسكرات سورية وقطاع غزة : وقد قام به مؤلف هذا الكتاب بقصد تحقيق عدد من النواحى العلمية يتعلق بعضها بالمجتمعات غير الطبيعية ، وهى المجتمعات التى تسيرها قوى خارجة عنها ترغمها على البقاء حيث هى وتحدد علاقاتها بتنظيمات معينة ، وقياس آراء واتجاهات أفراد هذه المجتمعات وما يمكن أن تفسره هذه الآراء والاتجاهات ، وتحقيق ما يمكن أن تتميز به هذه المجتمعات من تماسك أساسه نفسى بسبب اشتراك أفرادها عادة فى الآمال والآلام وشعورهم بما يقع عليهم من ظلم أو اضطهاد .

ومن المعسكرات غير الطبيعية التى درست علمياً ، معسكرات الاعتقال فى روسيا وألمانيا النازية ، ومجتمع المعزل الأفريقى فى بتشوانا لاند ، وقد أضاف المؤلف بدراسة معسكرات اللاجئين نوعاً آخر من هذه المجتمعات غير الطبيعية .

ويمكن إيجاز الأهداف العلمية الرئيسية من دراسة اللاجئين الفلسطينيين فى معسكراتهم فيما يلى :

١ — النظر لمعسكر اللاجئين من حيث كونه مجتمعاً والبحث فى مقومات مثل هذا المجتمع وإمكانيات بقائه .

٢ — البحث فى مدى ما تنطوى عليه فكرة المعسكر من عمل إنسانى قصد به تعويض اللاجئين عن بلادهم ، وقابلية وصف هذا العمل بأنه إنسانى .

٣ — تحقيق مدى ثقة اللاجئين الفلسطينيين فى الهيئات الدولية المعنية بشئونهم .

٤ — تحقيق الأسباب التى تؤدى إلى التباين أو التشابه فى حياة اللاجئين فى كل من قطاع غزة وسورية .

٥ — تحقيق الأسباب التى تؤدى إلى التباين فى معاملة اللاجئين الأوربيين فى أوربا ومعاملة اللاجئين الفلسطينيين فى الشرق الأدنى .

٦ — تحقيق ما يقال من أن أحد عوامل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بيع العرب أراضيهم لليهود قبل قيام دولة إسرائيل وأثناء الانتداب البريطانى .

كما كانت الدراسة تهدف من جانب آخر وبطريق غير مباشر إلى ناحية عملية ، وهى أنها بتوضيح أحوال اللاجئين الفلسطينيين فى سورية وقطاع غزة ، وبمقارنة هذه الأحوال فيما بينها فى كل من هذين المكانين ثم بمقارنتها بأحوال اللاجئين الأوربيين ربما استطاعت أن تلقى بعض الضوء على المشكلة فتنير السبيل أمام الحكومات والهيئات المختلفة للطرق العملية لحلها . وهذا الاتجاه العملى نحو تطبيقات العلوم لخدمة المجتمع أصبح أمراً ضرورياً متفقاً عليه بين العلماء فى كل بلاد العالم وخاصة فى إنجلترا والولايات المتحدة .

ومن ضمن النتائج التى انتهى إليها البحث أن المعسكر لم يف بأى من الغرضين اللذين أنشئ من أجلهما ، فهو لم يعوض اللاجئين عن وطنهم بعد أن ثبت بالبحث أن أملهم فى هذه العودة يقوى يوماً بعد يوم ، أما الغرض الثانى وهو تحقيق الناحية الإنسانية ، فقد أثبت البحث أن حشرهم فى هذه المعسكرات وبالصورة التى درسرا عليها يبعد كل البعد عن الناحية الإنسانية .

كما انتهى البحث إلى عدد آخر من النتائج يتعلق بعضها بمقارنة اللاجئين الفلسطينيين باللاجئين الأوربيين ، وبما يشاع عن بيع اللاجئين لأراضيهم لليهود وعن مدى تماسكهم كمجموعة .

وقد استخدم الباحث فى هذه الدراسة طريقة المقابلة الشخصية والطريقة الإحصائية والمنهج التاريخى والملاحظة الشخصية .

٥ — بحث المعوقات الاجتماعية والاقتصادية لتخطيط التعليم . ودراسة على ظاهرة التسرب فى التعليم الابتدائى فى مصر .

موضوع رسالة تقدم بها سالم عبد العزيز محمود للحصول على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد لطفى ، ونوقشت فى مارس ١٩٧٦ وأجيزت بمرتبة الشرف الأولى .

وكانت الدراسة تهدف إلى تحقيق النواحى التالية :

١ — تأثير العوامل الاجتماعية والاقتصادية على الاتجاهات السائدة فى المجتمع نحو التعليم ، وتحديد مسئولية أفراد المجتمع فى خلق المعوقات الاجتماعية والاقتصادية لتخطيط التعليم العام فى مصر .

٢ — تحديد مسئولية النظام التعليمى القائم فى خلق ووجود المعوقات الاجتماعية والاقتصادية لتخطيط التعليم العام فى مصر .

٣ — تحديد أهم العوامل الاجتماعية والاقتصادية المؤثرة على ظاهرة التسرب فى التعليم الابتدائى فى مصر .

وقد قامت الدراسة الميدانية المقارنة بين ثلاثة أنماط ، الحضرى (القاهرة والإسكندرية) والريفى بالوجه البحرى (المنوفية والبحيرة) ، والريفى بالوجه القبلى (أسيوط وسوهاج) كما قامت الدراسة على عينة قدرها ٥٠٠ أسرة تمثل القاهرة والإسكندرية منها ٢٧٥ وحدة ، والمنوفية والبحيرة ١٢٠ وحدة وأسيوط وسوهاج ١٠٥ وحدات ، وذلك على أساس عدد تلاميذ السنة الأولى الابتدائية بكل قطاع من القطاعات الثلاثة .

وقد انتهت الدراسة إلى عدد من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلى :

(ا) تمثل مجموعة العوامل الاجتماعية والاقتصادية معوقات أساسية تؤثر تأثيراً سلبياً فى اتجاهات أفراد المجتمع نحو التعليم . وتتمثل هذه المجموعة من العوامل فى تفتيت الملكية والتجزؤ الحيازى للأرض الزراعية فى المجتمع الريفى وزيادة معدل الإنجاب وزيادة حجم الإعالة فى الأسرة، وأخيراً الهجرة الداخلية من الريف إلى الحضر .

(ب) يعد النظام التعليمى القائم مسئولا عن المعوقات الاجتماعية والاقتصادية لتخطيط التعليم العام فى مصر نتيجة لقلة الإمكانات المتاحة لمواجهة الأعداد المتزايدة من التلاميذ ولعدم واقعية الأهداف المرسومة له .

(حـ) إن أعداد السكان الذين فى سن التعليم الابتدائى (٦سنوات) والذين لا يستوعبهم نظام التعليم الابتدائى ، وأعداد التلاميذ المتسربين من التعليم الابتدائى يمدون أو يفقدون حجم الأمية بصورة مستمرة .

٦ ـ بحث تنظيم الأسرة :

قامت به كليتا الآداب والتربية بجامعة عين شمس بتكليف من الجامعة بهدف دراسة ظاهرة تنظيم الأسرة فى المجتمع المصرى للوصول إلى الحقائق المختلفة التى يسفر عنها البحث والتى تخضع لها هذه الظاهرة فى المجتمع .

وقد شكلت لجنة البحث من أعضاء هيئة التدريس والمعيدين بكليتى الآداب والتربية بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد لطفى وعضوية الأستاذ الدكتور سعيد غنيم والدكتور محمود عودة والدكتور محمود أبو النيل والدكتور السيد الحسينى من كلية الآداب ، والدكتور سليمان الخضرى من كلية التربية ومن خمسة من المعيدين فى الكليتين .

وقد شكل للبحث فريق للعمل الميدانى يتولى جمع البيانات من القطاعات الاجتماعية المختارة وطبقت استمارة البحث على حوالى ١٠٠٠ أسرة فى محافظة الغربية عن الوجه البحرى ومحافظة قنا عن الوجه القبلى موزعة على ١٣ قرية من المحافظتين .

وبعد انتهاء العمل الميدانى أجريت عمليات التحليل الإحصائى لعدد من المتغيرات فى علاقتها بالاتجاه نحو تنظيم الأسرة فى ضوء ما أسفرت عنه عمليات تفريغ بيانات الاستمارة وتمثلت هذه المتغيرات فى :

(ا) الاتجاهات العامة نحو تنظيم الأسرة .

(ب) العلاقة بين الإقامة فى أى من الوجهين القبلى والبحرى وبين الاتجاهات نحو تنظيم الأسرة .

(حـ) العـــلاقة بين القرب أو البعد من المراكز الحضرية وبين الاتجاهات نحو تنظيم الأسرة .

(د) أثر الفروق بين النوعين (ذكور وإناث) على الاتجاهات نحو تنظيم الاسرة .

وقد انتهى البحث وقدم تقريره إلى الجامعة فى أوائل سنة ١٩٧٧ بعد أن استغرق البحث حوالى ست سنوات ، وتقوم الجامعة حاليـًا بطبعه .

ويهمنا من هذا البحث أنه لم يتضمن فى أهدافه أية نواحى تتعلق بعمليات للعلاج أو الإصلاح الاجتماعى وإنما اقتصر الهدف على مجرد تحديد عدد من الحقائق والاتجاهات التى تتعلق بموضوع البحث ، وإن كان هذا لا يمنع طبعاً من إمكان، الاستفادة منه فيما بعد فى العلاج أو الإصلاح .

وبحث تنظيم الأسرة هذا وإن كان يعتبر من البحوث الكبيرة إلا أنه مع هذا اعتبر دراسة استطلاعية تمهيداً لدراسة أخرى فى نفس الموضوع على مستوى أوسع وأشمل .

وواضح من هذه النماذج التى استعرضناها للبحث الاجتماعى أن الباحثين فيها كانت لديهم فروض مبدئية عن موضوع دراستهم . وقد بحثت هذه الفروض لمعرفة صحتها أو استبدالها بأنواع أخرى من المعرفة .

ومثل هذه البحوث السابقة وغيرها لا تهتم بالمجتمعات أو المشاكل الاجتماعية كغايات فى حد ذاتها ، وإنما كوحدات مفروض فيها أنها تمثل مظاهر معينة للتصرف الإنسانى يمكن عن طريق دراستها بطريقة علمية منظمة أن نصل إلى مرحلة الفهم والتعميم ، والتنبؤ بعد ذلك بعمليات التغير أو الصراع أو التكيف أو تكوين العصابات وغير ذلك من مظاهر حياة الجماعة التى تحدث فى هذه المجتمعات التى بحثت أو فى غيرها من التجمعات المماثلة فى وقت القيام بالدراسة أو فى أوقات أخرى .

وعلى ذلك فالبحوث الاجتماعية لا تهتم بالمشاكل المرضية إلا بقدر ما يمكن لهذه المشاكل من إلقاء الضوء على العمليات الاجتماعية الأساسية والتصرف الإنسانى .

ولا تهتم البحوث الاجتماعية بالهندسة الاجتماعية أو العلاج الاجتماعى أو تعديل وتحسين الإدارة أو النظم الإدارية أو الإصلاح الاجتماعى ، ذلك لأن طالب البحث الاجتماعى لا يضع مقدماً معايير للحياة والعمل أو للكفاءة والرخاء ، كما أنه لا يقيس الظواهر الاجتماعية على ضوء هذه المعايير بقصد تحسينها .

وبعد أن استعرضنا هذه النماذج للمسح الاجتماعى والبحث الاجتماعى يمكن أن نحدد أوجه الاختلاف بينهما فيما يلى :

١ ـ يتفق المسح الاجتماعى مع البحث الاجتماعى فى أخذهما بالطرق والاتجاهات العلمية التى تبدو فى العمل بطريقة منظمة واستشارة المراجع بطريقة غير متحيزة ، والملاحظة وجمع البيانات والتسجيل وتصنيف البيانات بطريقة موضوعية واختبارها ، والتحقق من صحتها . ولكنهما مع ذلك يختلفان فى أن المسح الاجتماعى لا يضع فروضاً معينة عن الظاهرة الاجتماعية كما يفعل البحث الاجتماعى .

٢ ـ يبدأ المسح الاجتماعى على أساس حقائق معروفة .

٣ ـ لا يلجأ المسح الاجتماعى إلى تكوين نظريات أو قوانين كما يفعل البحث الاجتماعى فى محاولة لتفسير العمليات الاجتماعية أو الأنماط الاجتماعية أو التشابه وعدم التشابه الذى يرتبط بالظواهر الاجتماعية كما يفعل البحث الاجتماعى . وعلى العكس من ذلك نجد الماسح الاجتماعى يكتفى بتحديد أعراض الظاهرة بقصد تصميم خطة العلاج أو الإصلاح الاجتماعى .

٤ ـ يشترك الماسح الاجتماعى مع الباحث الاجتماعى فى اهتمامهما بالحياة الاجتماعية والرخاء الإنسانى ، مع اختلاف فى أن اهتمام الأول ينصب على أناس بعينهم ، أو مكان بعينه أو وضع معين ، بينما يهتم الثانى بأوضاع معنوية وعالمية أعم كالقصة والجريمة والانتحار والتشرد ، ففى الوقت الذى يبحث فيه الماسح الاجتماعى عن طريقة سريعة قدر الاستطاعة للضبط الاجتماعى الذى يتطلبه ضغط الحاجات المطلوبة

نجد أن الباحث الاجتماعى يفكر فى حاجات المستقبل البعيد ، أى فى الوقت الذى نجد فيه الأول مهتما بأناس معينين يهتم الثانى بالإنسانية عامة .

وعلى الرغم من أنه لا يمكن أن نتجاهل الحقيقة فى أن كلا من المسح الاجتماعى والبحث الاجتماعى له أهدافه واتجاهاته المختلفة فى دراسة المشاكل الاجتماعية والحياة الاجتماعية إلا أنهما ينبعان من بعضهما ويصبان فى بعضهما خلال عملية دائمة من التفاعل ، فالمسح يكشف عن المشاكل التى ينقصها الحل كما يكشف عن عيوب الطرق التى تستخدم فى الدراسة ، هذا علاوة على ما يجمع عن طريق المسح من بيانات كثيرة متعددة عن الحياة الاجتماعية التى يستفيد منها البحث الاجتماعى فى كثير من الأحيان عند دراسته للعمليات والأشكال الاجتماعية . ومن ناحية أخرى قد يختبر الباحث الاجتماعى صحة النتائج التى توصل إليها المسح الاجتماعى تمهيداً لاقتراح أفكار واتجاهات جديدة .

ومن كل ما سبق نرى أنه لا يوجد خط فاصل واضح بين المسح الاجتماعى والبحث الاجتماعى فى مجال العمل الاجتماعى أو الدراسة الاجتماعية . ولكى يكون لكل من هذين النوعين من التحقيق الاجتماعى آثاره الطيبة وجب أن يعملا متعاونين . فلكى تكون نتائج المسح مما يعتمد عليه قيامها على أساس مناهج ووسائل البحث ، كما أن البحث بدوره يستخدم النتائج التى يخرج بها المسح ، فهو يختبرها ليؤكدها أو يرفضها ، كما نجد فى أحيان كثيرة أن المسح الاجتماعى يشير إلى المشاكل ويثير الأسئلة التى لا يمكن الإجابة عنها أو حلها إلا عن طريق البحث العلمى الدقيق :

المنهج التاريخى Historical Method

يستخدم المنهج التاريخى للحصول على أنواع من المعرفة عن طريق الماضى بقصد دراسة وتحليل بعض المشكلات الإنسانية والعمليات الاجتماعية الحاضرة ، ذلك لأنه كثيراً ما يصعب علينا فهم حاضر الشىء دون الرجوع إلى ماضيه ، فالملاحظة المباشرة للظواهر الاجتماعية فى حالتها الاستقرارية لا تعتبر أساساً كافياً للبحث الاجتماعى لأنها لا تعطينا عن هذه الظواهر مجالا كافياً أو دقة تامة . ويجب على هذا الأساس أن تضاف إليها دراسة تتجه إلى الكشف عن كيفية نشأة الظاهرة ، وبمعنى آخر تاريخها ، فالماضى لا شك يحوى بذور الحاضر . وإذن فالمنهج التاريخى عبارة عن دراسة الحوادث والوقائع الماضية وتحليل حقائق المشكلات الإنسانية والقوى الاجتماعية التى شكلت الحاضر .

والاتجاه التاريخى ضرورى فى كثير من الحالات لفهم الظواهر الاجتماعية فى الزمان والمكان ، وأثر ذلك فى تكوينها وفى كثير من العمليات الاجتماعية ، ويمكن أن نمثل لذلك بدراسة الأساس التاريخى للمشكلة اليهودية ، وحيث تظهر الحقائق التاريخية عدم صحة كثير مما يدعيه اليهود عن طردهم من فلسطين فى العصور القديمة فى الوقت الذى أثبتت فيه الوثائق التاريخية أنهم لم يطردوا وإنما تركوها باختيارهم عندما وجدوا فى بلاد العالم الأخرى مجالا أوسع للكسب والثراء .

وإذا استخدمنا المنهج التاريخى فى البحث الاجتماعى أو المسح الاجتماعى فلا يهمنا أن نتعمق فى التاريخ حتى نصل إلى هيرودوت مثلا ، وإنما يهمنا أن نرجع إلى الماضى بالقدر الذى يمكننا من تتبع نمو العمليات الاجتماعية ودراسة أثر ذلك على المشاكل الاجتماعية الحاضرة . ولذلك أهميته فى المسح الاجتماعى ، إذ على ضوئه يمكن تحديد أى الظروف فى حاجة إلى تصحيح ومعرفة الأساس الذى بنى عليه التصميم الاجتماعى لكى يكون هذا التصميم مثمراً إذا أمكن الحصول على القرائن التى قد تهدى إلى مصادر أو أصول المشاكل ومدى أثرها فى حياة الجماعة ، وعن الوسائل والطرق

التى يمكن التحكم بها فى هذه المصادر ونفوذها ، وذلك حينما يكون الأساس دينياً مثلا .

وقد يتسع مجال الدراسة التاريخية فيجد الطالب نفسه وقد اندمج فى عدد من العلوم الأخرى كعلم المخطوطات القديمة Palaeogrhy أو علم الآثار Archaeology أو علم الجغرافيا أو الأنثروبولوجى .

واستخدامنا للمنهج التاريخى يدفعنا إلى استشارة كثير من المصادر لكى نحصل على ما نريد من بيانات ، ومن أهم هذه المصادر .

١ — الوثائق — وقد تكون هذه الوثائق مكتوبة كالمخطوطات والرسائل والمذكرات وتواريخ الحياة وحيثيات الأحكام والاتفاقيات والقوانين والسجلات التجارية والجرائد وخلاف ذلك من بيانات مسجلة . وقد تكون هذه الوثائق شفوية كالحكم والأمثال والأساطير والأغانى الشعبية والطقوس ، كما قد تكون مصورة كالنحت والرسم والصور والنقود والأدوات الفنية والآثار .

٢ — ما كتب فى تاريخ الحضارة والتاريخ التحليلى فى صورة بحوث أو آراء مما يلقى كثيراً من الضوء على الظاهرة موضوع الدراسة .

٣ — الأشخاص الذين لاحظوا الظاهرة بأنفسهم أو الشهود على بعض الوقائع .

أما عن متى وكيف وتحت أى ظروف نستخدم كل أو بعض المصادر السابقة فإن هذا يتوقف إلى حد كبير على حكمة الباحث ومدى اهتمامه ومدى اتساع دراسته ومدى توافر هذه المصادر ، إلا أنه مع ذلك يجب على الطالب فيما يتعلق بهذه المصادر أن يراعى ما يلى :

١ — إذا كانت الوثائق التاريخية مما يتعلق بوقائع قديمة تصل فى قدمها إلى عدد من القرون لا عدد من الأجيال ، كان من الأفضل لطالب البحث ألا يلجأ إلى الوثائق الأصلية اكتفاء بما كتبه علماء التاريخ عنها ، فلا داعى لأن يلجأ إلى أوراق البردى نفسها ما دام قد كتب عنها علماء من أمثال سليم حسن مثلا ، ذلك لأن عالم التاريخ أو المحلل التاريخى يكون أدعى للاعتماد عليه فى هذه الحالة ، إلا أنه مع ذلك فهناك

حالات تتطلب الالتجاء إلى الوثائق مباشرة إذا كان البحث يدور حول نواح لم يسبق تحليلها عن طريق علماء التاريخ ، أو إذا كان البحث يدور حول حلقة مفقودة تتعلق بنظم اجتماعية معينة لم تكن من قبل مجالا لأية دراسة تاريخية ، أو إذا أردنا أخيراً أن نتحقق من بعض ما كتبه علماء التاريخ .

٢ — المقصود بالبيانات التاريخية كل أنواع المعلومات المتوافرة التى تخص الناس خلال فترة من الوقت يكون قد مضى عليها ثلاثة أو أربعة أجيال على الأقل ، والحكمة من ذلك أن كثيراً من المصادر الضرورية لتفسير الحاضر لا يمكن أن تتوافر إلا إذا انقضى هذا الحاضر وأصبح فى الماضى . ومن أمثال هذه المصادر المذكرات Diaries والاعترافات Confessions وتواريخ الحياة Autobiographies والسجلات السرية Archives والاتفاقيات الدبلوماسية السرية وغيرها مما يؤثر فى يومنا وجيلنا الحاضر ولكنه يتميز رغم ذلك بأنه بعيد عن متناول أيدينا فى الحاضر .

٣ — قد تكون الوثائق المعاصرة وهى التى تتعلق بالحاضر أو بالماضى القريب هى المصدر الوحيد للمعلومات ، وفى هذه الحالة يمكننا أن نستخلص منها الحقائق والعوامل الاجتماعية التى يمكن أن تفسر بها الأوضاع الحاضرة ، ولكنها لن تمدنا بما يمكننا من المقارنة أو التعميم . وقد تكون هذه الوثائق المعاصرة مصدراً مثمراً للمعلومات ، ولكن إلى أى مدى وبأى أسلوب يمكن للباحث أن يعتمد عليها ، فهذا مما تصعب الإجابة عنه بصورة عامة .

٤ — على الباحث الذى يستشير الوثائق الأصلية أن يكون على حذر ، وأن يعتمد دائماً على حكمته ووضعه العلمى إذ قد يختلف فهمه لهذه الوثائق والحقائق التى تعرضها والغرض مما تعرضه . وعليه هنا أن يزن المصادر التى يلجأ إليها والبيانات التى تعرضها وأن يميز عن طريق المقارنة بين المصادر التى يعتمد أو لا يعتمد عليها .

٥ — على الباحث قبل أن يلجأ إلى الوثائق التاريخية أن يستشير أحد رجال التاريخ ، وأن يشرح له غرضه وحدود دراسته لكى يستفيد من اقتراحه وترجيهاته فى هذا المجال .

٦ — إذا لجأنا إلى البيانات التاريخية وجب علينا أن نسأل أنفسنا عدداً من الأسئلة

عما إذا كان المؤلف قد لجأ إلى المصادر الأصلية أو إلى مصادر ثانوية وعما إذا كان قد اكتفى بمصدر واحد أو بعدة مصادر وعما إذا كان يهتم بزاوية معينة أو بوجهة نظر عامة، وعن مدى اتفاق آرائه مع آراء معاصريه . ومن ناحية أخرى نحاول دائماً أن نستشف مدى إخلاصه فيما كتب وهل كانت له مصلحة معينة فى أن يخدع القارئ أو هل كان واقعاً تحت تأثير ضغط معين يجعله يحيد عن الصدق ، أو متأثراً بحب أو كراهية تدفعه لأن يكون متحيزاً .

منهج بحث الحالة The Case Study Method

يعتبر تاريخ الحالة أو تاريخ الحياة كطريقة للدراسة من أقدم الطرق التى استخدمت فى عرض وتفسير التجارب الشخصية والسلوك الاجتماعى . ونلمس جذور هذه الطريقة فى تلك القصص التى تحكى عن الأنبياء والحكماء ، كما نجدها ممثلة فى الروايات بمختلف أنواعها ، أما فى البحوث الاجتماعية فقد بدأ رجال التاريخ باستخدام طريقة بحث الحالة فيما نشروه من معلومات وصفية للشعوب والأمم ، ثم أخيراً فى دراساتهم الضيقة للجماعات والحوادث والأفراد[1].

ويعتبر لوبلى أول من استخدم منهج بحث الحالة بطريقة منظمة للحصول على ما كان يريد من إحصائيات تتعلق بدراسته لميزانية الأسرة ، كما اهتم هربرت سبنسر بالاستفادة من نفس المنهج فى محاولته لجمع الوثائق الأتنوجرافية للإنسان البدائى كأول وحدة اجتماعية لها صلة بالخلية البيولوجية .

ويتميز منهج دراسة الحالة بالعمق أكثر مما يتميز بالاتساع فى دراسته للأفراد والمجتمعات والاتجاهات الفردية والاجتماعية ، كما يتميز بالتركيز على الجوانب الفريدة أو المميزة ، ولذلك يشيع استخدامه فى الدراسات المتعلقة بالخدمة الاجتماعية وفى الدراسات النفسية الإكلينيكية .

وتبدأ دراسة الحالة فى البحوث الاجتماعية بتحديد الظاهرة ثم جمع البيانات عنها ، ويصاحب ذلك وضع فروض معينة وتعديلها باستمرار تعديلا يتفق مع طبيعة البيانات التى تجمع حتى نصل إلى مرحلة يمكن معها صياغة الفروض بصورة تسمح باختبارها اختباراً دقيقاً يتيسر معه التعميم . وإذن فنحن نلجأ إلى هذه الطريقة إذا أردنا الحصول على معلومات أو بيانات تمكننا من وضع عدد من الفروض لتنظيم بحث معين وتحديد المشكلات التى تستحق البحث ؛ وعلى هذا الأساس فنحن نلجأ إلى بحث الحالة لا لنختبر فروضاً معينة، وإنما لنحصل على المادة التى تمكننا من تعيين الفروض لكى نكون أقدر على تحديد المشكلات وترتيبها بحسب أهميتها .

وتكتب دراسة الحالة أو تاريخ الحياة عموماً بضمير الغائب بواسطة العاملين الميدان عن طريق المقابلة الشخصية ، كما يضاف إليها بعض الدراسات المعملية . بقصد دراسة كل دورة الحياة أو عملية معينة فى هذه الدورة ؛ وذلك بالنسبة لوحدة منفردة ، قد تكون شخصاً أو أسرة أو مؤسسة أو جماعة أو مجتمعاً بأسره . وتشمل دراسة الحالة للجماعة أو المجتمع عادة عدداً كبيراً من دراسات الحالة للوحدات المتشابهة .

والوثائق الشخصية Personal Documents من أهم المصادر التى يستعان بها فى طريقة بحث الحالة ، وتوجد هذه الوثائق فى العادة بضمير المتكلم ذلك لأنها إما أن تكون قد كتبت بوساطة صاحبها نفسه وإما أن يكون صاحبها قد ذكرها شفوياً لشخص آخر . ومن أهم أشكال هذه الوثائق تاريخ الحياة كما كتبه صاحبه بنفسه ، والمذكرات والخطابات والاعترافات .

ولهذه الوثائق الشخصية أهمية فى البحوث الاجتماعية لأنها عبارة عن سجلات تكشف عن النفس عمداً أو بدون عمد ، وهى تمدنا بذلك بمعلومات مباشرة عن نشاط وعقلية كاتبها كما تكشف فى الوقت نفسه عن علاقاته الاجتماعية التى يفضلها والتى تغير أو تؤثر فى سلوكه واتجاهاته والقيم السائدة عنده .

وإجمالا فإن دراسة الحالة بالنسبة لشخص معين بما يشمله من تاريخ لحياته ، تكشف عما يعتمل فى نفسه من صراع داخلى كما تكشف عن طريقته فى الحياة والدوافع التى تدعوه إلى أن يسلك سلوكاً معيناً والعوائق التى تمنعه أو تثيره أو تتحداه لاتخاذ سلوك بالذات فى وضع اجتماعى معين ، وهذه الأوضاع الاجتماعية المختلفة هى التى تمدنا بالفهم العميق لأنماط الحياة ككل أو لتفكك شخصيته .

وفى هذا المعنى يقول كليفوردشو Clifford Shaw إنه عندما قام بدراسته للأحداث المنحرفين كان لكى يتعمق فى فهمه لأنماط السلوك التى تصدر عنهم ، ولكى يدرس مدى وعيهم للدور الذى يلعبونه فى الجماعة ، بدأ يجمع كثيراً من المعلومات عن طريق دراسة لحالة ، لأن هذا كان يساعده على الفهم بطريقة ملموسة وبالتفصيل بما فى ذلك البيانات الطبية العادية والبيانات والاختبارات السيكولوجية ، والسلوك والعادات

والمعايير الاجتماعية والأساس الحضارى للأسرة والمجتمع والعلاقات الاجتماعية السائدة .

"In order to gain insight into the behaviour patterns of these individuals and learn their conception of the role they play in the group. I started out to accumulate a mass of raw material in the form of cases described in concrete and specific detail including the usual medical psychological and psychiatric data, as well as the cultural background of the family and the community and the life-history and social relationships of the individual."(١)

وللمذكرات والخطابات أهميتها فى هذا المنهج لأنها تعتبر مكملة لتاريخ الحالة ، فالمذكرات قد تلقى الضوء على الاتصالات الاجتماعية بالنسبة للفرد وتجاربه التى يعتبرها هامة بالنسبة له ، كما تعود أهميتها أيضاً إلى أنها تمدنا بالبيانات كما حدثت عند وقوعها دون أن نعتمد بذلك على الذاكرة ، وللخطابات نفس الأهمية من ناحية تكملتها لتاريخ الحالة نظراً لما تحتويه فى العادة من بيانات ومواقف شخصية وما تتضمنه من أخبار وردود أفعال عاطفية ومواضع اهتمامات شخصية مما لا يوجد عادة فى الوثائق الأخرى ، هذا علاوة على صعوبة الحصول عليها عن طريق المقابلة الشخصية .

وإلى جوار الوثائق الشخصية تعتمد طريقة بحث الحالة على كثير من الوسائل الأخرى كالمقابلة الشخصية والملاحظة والبيانات الإحصائية فيما تحتفظ به المنظمات الاجتماعية من سجلات ، والصور والجرائد والمجلات والجداول والتحليل الإحصائى .

وإذا أردنا أن نميز بين أهداف ووسائل طريقة بحث الحالة فى البحوث الاجتماعية وبين أهدافها ووسائلها فى الخدمة الاجتماعية ، وجدنا أن البيانات فى الخدمة الاجتماعية لا تجمع للمقارنة والتصنيف تمهيداً لتكوين مبادئ عامة ، وإنما تجمع بقصد الوصول إلى تشخيص مستقل دون اعتبار للمقارنة أو التصنيف أو التعميم العلمى . ويكون هذا التشخيص خطوة أولى لتعيين علاج لهذه الحالة بالذات ، فى الوقت الذى نجد فيه البحث يقوم بأبحاثه دون اعتبار لأى علاج مباشر .

وعلى الرغم مما تتميز به دراسة الحالة من عمق إلا أن اعتمادها على دراسة عدد محدود من الحالات يجعل التعميم خطراً بل مستحيلا ، هذا علاوة على أن كثيراً مما يسجل يكون

(١) Clifford Shaw, "The Case Study Method", Publication of American Sociological Society, XXI, 1927, pp. 149 - 150.

عرضة لخطأ الشعور أو الذاكرة أو الحكم أو تحيز اللاشعور ، مع اتجاه الدراسة دائماً إلى التركيز على الحوادث غير العادية ، هذا علاوة على أن البيانات التى تجمع عن طريق دراسة الحالة لا تخضع فى العادة لنظام العينات ، وهذا يجعل التعميم إن انتهى إليه البحث يعتمد على بيانات تمثل حالات مميزة .

ويشك رد بين Read Biain فى أهمية البيانات التى نحصل عليها عن طريق دراسة الحالة من ناحية كفايتها علمياً للأسباب الآتية[1] :

١ — قد يكتب المختبَر أو يروى ما يشعر بأن المختبِر فى حاجة إليه أو ما يظن أنه فى حاجة إليه .

٢ — يكون اهتمام المختبَر عادة متجهاً إلى التبرير أكثر من اتجاهه إلى تقرير الحقائق .

٣ — يحاول المختبَر أن يظهر نفسه فى قصته ليس كما هو بل كما يظن أنه هو ، أو كما يود أو يأمل أن يكون أو كما يأمل أو يعتقد الآخرون أنه يكون أو كان أو سيكون .

٤ — يميل المختبِر فى دراسته إلى رؤية ما يبحث عنه . ونلمس هذه الناحية فى الدراسات التى تقوم بها مدارس Adler و Jung و Freud فى التحليل النفسى فعلى الرغم مما يحيط دراساتهم جميعاً من اتجاه علمى وما يتميزون به من عقلية علمية فإنهم فى دراستهم لحالة معينة يرى أحدهم فيها نقصاً عضوياً Organ Inferiority ويرى الثانى انطواء أو انبساطاً Introversion or extroversion بينما يرى الثالث عقدة جنسية أو كبت Repressed Libido .

٥ — يتميز معظم الأشخاص الذين تدرس حالاتهم بأنهم مشكلون أو شاذون فردياً أو اجتماعياً ، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن يكون للتعميم قيمة علمية إلا بالنسبة لفئة صغيرة . وحتى بالنسبة لهذه الفئة الصغيرة يكون التعميم مما لا يعتمد عليه لأن كل حالة درست تعتبر فريدة فى نوعها .

---

(١) Read Bain, "The Validity of Life Histories and Diaries, Journal of Educational Research, III (Nov., 1929) pp. 156 - 161.

٦ — يكون المختبر عادة فى وضع يميل فيه إلى مساعدة المختبَر .

ويمكننا أن نتحاشى هذه العيوب إلى حد كبير إذا ما أخضعنا البيانات التى نحصل عليها للإضافة عن طريق أية مصادر أخرى ، إذا لجأنا إلى طريقة العينات فى اختيار الحالات ، وإذا أخضعناها أيضاً للمراقبة والتحليل الدقيق ، هذا بالإضافة إلى دقة اختيار المختبرين ومدى دقتنا فى نظامنا وفى طريقتنا فى البحث والتسجيل .

ولكن مع كل هذه العيوب فإن طريقة دراسة الحالة تمكننا من الحصول على فروض مثمرة كما أنها تمدنا بكثير من البيانات التى يمكن أن تكون لها أهميتها فى الاختبار والتى يصعب بدونها أن نصل إلى مرحلة التعميم فى العلوم الاجتماعية ، وخاصة إذا ارتفع عدد الحالات التى تبحث وإذا تأكدنا أنها ممثلة للمجموع .

المنهج التجريبى Experimental Method

يقوم المنهج التجريبى على أساس جمع البيانات بطريقة تسمح باختبار عدد من الفروض عن طريق التحكم فى مختلف العوامل التى يمكن أن تؤثر فى الظاهرة موضوع الدراسة ، والوصول بذلك إلى العلاقات بين الأسباب والنتائج . وتمتاز مثل هذه البحوث التجريبية بإمكان إعادة إجرائها بواسطة أشخاص آخرين مع الوصول إلى نفس النتائج إذا توحدت الظروف .

ولا تتوافر للباحث فى ميدان العلوم الاجتماعية فى كثير من الحالات الظروف التى تتوافر للباحث فى العلوم الطبيعية نظراً لما تتميز به الظواهر الاجتماعية من تعقيد وتداخل العوامل التى يصعب ضبطها والتحكم فيها وتلك العوامل التى غالباً ما تتمثل فى الإنسان نفسه أو المجتمعات الإنسانية عامة .

وفى حالة القيام بإحدى التجارب التى تهدف إلى اختبار فرض معين يرى وجود علاقة منتظمة بين ظاهرة معينة ومتغير بذاته أو بين متغير ومتغير آخر يجب توفير « الضبط العلمى الذى يقوم على أساس دراسة أو ملاحظة جماعتين إحداهما تجريبية Experimental والأخرى ضابطة Controlled تتعادلان فى كافة المتغيرات الهامة ما عدا متغيراً واحداً يوجد فى الجماعة التجريبية فقط ، وهو المتغير الذى يفترض أنه له علاقة منتظمة بالظاهرة المدروسة أو أن هناك علاقة منتظمة بينه وبين المتغير الآخر فإذا لوحظ أن الظاهرة المدروسة تحدث فى الجماعة التجريبية فقط دون الجماعة الضابطة استنتجنا أن هناك علاقة بين هذا المتغير وبين الظاهرة المدروسة أو المتغير الآخر وتزداد ثقتنا فى صدق هذا الاستنتاج إذا وجدنا أن التغير فى أحد المتغيرين يصاحبه تغير مقابل فى المتغير الآخر وفى الاتجاه المتوقع »[1] .

هذا الاتجاه التجريبى فى الدراسات الاجتماعية من أحدث ما أدخل على هذه

---

(١) إبراهيم إيفو ادولويس كامل مليكه . البحث الاجتماعى ، مناهجه وأدواته (سرس الليان ١٩٥٩) ص ٤٧ .

الدراسات كطريقة للبحث ولقد قامت على هذا الأساس عدد من الدراسات يمثل لنا ستيوارث تشابين ببعضها على الوجه التالى :

النموذج الأول[1] — دراسة تجريبية تهدف إلى معرفة « أثر فترة الالتحاق بالكشافة على الانسجام الشخصى فى المجتمع وكان عنوان هذه الدراسة The Personal Adjustment of Boy scouts in Minneapolis in 1938.

وكانت هذه الدراسة موضوعاً لرسالة الماجستير من جامعة مينا بوليس قدمها Mandel فى سنة ١٩٣٨ . ويمكن إيجاز خطوات البحث فيما يلى :

١ — وجد أن مجموع الأفراد الذين يضمهم البحث ٢٠٥٠ كشافاً فى سنة ١٩٣٤ وذلك من واقع سجلات جامعة مينا بوليس .

٢ — اختيرت منهم عينة عشوائية بنسبة ١٠٪ وكان حجمها بذلك ٢٠٥ كشافين .

٣ — لم يعثر من أفراد هذه العينة التى اختيرت فى سنة ١٩٣٨ إلا على ١٠٢ كشافين ، وذلك بسبب رحيل الباقين أو هجرتهم أو عدم العثور عليهم أو عدم رغبتهم فى التعاون مع البحث .

٤ — قسم الأفراد الذين عثر عليهم وعددهم ١٠٢ إلى فريقين أمضى الأول فى خدمة الكشافة أربع سنوات كاملة ، بينما تركها الفريق الثانى قبل مضى أربع سنوات . وقد كان مجموع كل فريق ٤٠ شخصاً وذلك بعد أن استبعد ٢٢ شخصاً لعدم استيفائهم الانسجام المطلوب بين الفريقين ، وذلك نتيجة تطبيق أسس معينة وهى المتغيرات التى اختيرت لتحقيق هذا الانسجام ، وكانت فى هذا البحث أربعة متغيرات هى مكان الميلاد ومهنة الأب والحالة الصحية وفئة السن .

٥ — قام البحث بذلك على أساس عينة من فريقين متساويين فى العدد يتكون كل منهما من ٤٠ شخصاً ، وقد اعتبر الفريق الأول وهو الذى أمضى أربع سنوات فى خدمة الكشافة الفريق التجريبى Experimental group بينما اعتبر الفريق الثانى وهو الذى لم يمض فى الكشافة أربع سنوات الفريق الضابط Controlled group . والفريقان متعادلان

(١) F. Stuart Chapin, Experimental Designs in Sociological Research (U.S.A.) 1955) Chap. III.

فى كافة المتغيرات فيما عدا متغيراً واحداً هو مدى الانسجام الاجتماعى والاقتصادى فى المجتمع .

النموذج الثانى[1] ، دراسة تجريبية تهدف إلى معرفة أثر إدخال برنامج صحى معين على مجتمع معين ، وعنوان هذه الدراسة :

A Controlled Experiment on Rural Hygiene in Syria.

وقد قدم هذا الموضوع للجامعة الأمريكية فى بيروت Stuart Dodd فى سنة ١٩٣٤. وكان هدفه اكتشاف أثر إدخال نوع معين من الثقافة الصحية على إحدى القرى وذلك بمقارنتها بعد فترة معينة من الزمن بقرى أخرى لم تنل مثل هذه الثقافة الصحية . وقد اعتبرت القرية التى أدخلت عليها هذه الثقافة الصحية القرية التجريبية بينما اعتبرت القرى الأخرى ضابطة . ولقد سار البحث بحسب الخطوات التالية :

١ — بدأ الباحث عمله فى سنة ١٩٣١ وذلك باختيار أربع قرى فى الريف السورى ، منها قرية اعتبرها تجريبية وهى التى سيدخل عليها البرنامج الصحى فيما بعد ، وثلاث قرى أخرى بمثابة عينة ضابطة ، وقد راعى فى اختيار هذه القرى الثلاث أن تكون بحسب موقعها بعيدة عن التأثر بالقرية التجريبية التى ستستفيد من البرنامج الصحى ، كما راعى فى اختيار القرى الأربع أن تكون متشابهة فى عدد من المتغيرات الهامة وكان عددها فى هذا البحث تسعة متغيرات تتمثل فى النواحى الجغرافية والسكانية والتاريخية والاقتصادية والدينية والمعيشية والتعليمية والترفيهية والصحية .

٢ — قام الباحث بدراسة هذه القرى الأربع على أساس توجيه عدد من الأسئلة الموحدة التى حددت للإجابة عنها درجات معينة ، وكانت للأسئلة عموماً صلة بممارسة النواحى الصحية ، وقد بلغ عددها ٧٧ سؤالا .

٣ — أدخل على القرية التجريبية البرنامج الصحى المقصود خلال فترة من الزمن بدأت فى سنة ١٩٣١ وانتهت فى سنة ١٩٣٣ ، وذلك عن طريق إحدى العيادات المتنقلة . وقد استفاد من هذا البرنامج ٤٠ أسرة عربية هى كل سكان القرية .

---

(١) سيتوارت تشابين : نفس المصدر السابق .

٤ — عاد الباحث فى سنة ١٩٣٣ وبعد انتهاء البرنامج الصحى إلى نفس القرى وكانت القرية التجريبية قد استفادت من البرنامج الصحى ، وأعاد نفس الأسئلة التى كان قد وجهها فى سنة ١٩٣١ .

٥ — قام الباحث بعد ذلك بمقارناته لمعرفة مدى تأثر القرية التجريبية بالبرنامج الصحى الذى أدخل عليها .

٦ — وجد بالبحث أن القرية التجريبية قد زادت من ٢٥٣ نقطة فى سنة ١٩٣١ إلى ٣٠٤ نقط فى سنة ١٩٣٣ . بينما وجد أن القرى الأخرى قد زادت من ٢٤١ نقطة فى سنة ١٩٣١ إلى ٢٨٦ نقطة فى سنة ١٩٣٣ .

والنتيجة وإن كانت قد أتت على غير ما كان يتوقع الباحث إلا أن الطريقة التى استخدمها تعتبر مثالية .

ويمكن أن نمثل للدراسات التى استخدمت المنهج التجريبى بدراستين أخريين أجريتا فى مصر على الوجه التالى :

الدراسة الأولى : عنوانها « العوامل الأسرية المؤدية إلى تغيب العمال فى المجال الصناعى » ، وكانت موضوع رسالة تقدم بها طلعت إبراهيم لطفى للحصول على درجة الماجستير فى علم الاجتماع بإشراف مؤلف هذا الكتاب ، ونوقشت الرسالة فعلا فى سنة ١٩٧٤ وأجيزت بتقدير جيد جداً .

كانت الدراسة تهدف إلى :

١ — دراسة الآثار المترتبة على تغيب العمال بدون عذر وبنوع خاص على التكلفة والكفاية الإنتاجية .

٢ — تحديد مدى ارتباط العوامل الأسرية بمشكلة التغيب بدون عذر .

وكان المنهج التجريبى منهجاً أساسياً فى هذه الدراسة .

قام الباحث باختيار العمال الذين يمثلون عينة الدراسة من بين العاملين فى الورش المختلفة بالوحدة الإنتاجية محل الدراسة ، الذين يشغلون مجموعات الوظائف الفنية والمهنية والخدمات المعاونة دون غيرهم من فئات العاملين شاغلى مجموعات الوظائف المتخصصة والتنظيمية والإدارية أو المكتبية .

وقد اشتملت عينة الدراسة على ٤٢٠ عاملا موزعين على مجموعتين من العمال إحداهما المجموعة التجريبية والأخرى المجموعة الضابطة ، وهما مجموعتان متساويتان فى العدد من العمال شاغلى الوظائف الفنية والمهنية والخدمات المعاونة ، وتتكون كل مجموعة من ٢١٠ عمال .

وتمثل المجموعة التجريبية العمال الذين تغيبوا عن العمل بدون عذر ثلاثة أيام فأكثر خلال عام ١٩٧١ ، وتمثل المجموعة الضابطة العمال الذين واظبوا على الحضور إلى العمل دون تغيب إطلاقاً خلال نفس العام .

ولقد بلغ عدد العمال الذين تغيبوا ثلاثة أيام وأكثر ٣٤٧ عاملا من مجموع عمال الوحدة البالغ عددهم ٢٧٦٥ ، اختار منهم الباحث ٢٧٦ عاملا وجدهم مركزون فى خمسة أقسام هى مصر الجديدة والزيتون والمطرية والوايلى وشبرا ، ولم يعثر الباحث من هؤلاء فى سنة ١٩٧٢ إلا على ٢١٠ عمال ، والباقون كانوا قد فصلوا أو جندوا أو نقلوا ، وعلى ذلك اقتصرت العينة التجريبية على ٢١٠ عمال فقط .

ثم اختار الباحث ٢١٠ عمال يمثلون المجموعة الضابطة وذلك من بين العمال الذين لم يتغيبوا إطلاقاً خلال عام ١٩٧١ .

وقد تم اختيار أفراد المجموعة الضابطة على أساس تماثل أفرادها مع أفراد المجموعة التجريبية نتيجة لتطبيق أسس معينة هى أهم المتغيرات أو العوامل غير الأسرية المرابطة بتغيب العمال والتى اختيرت لتحقيق الانسجام بين أفراد المجموعتين وذلك على أن يكون كل عامل فى المجموعة التجريبية يناظره عامل فى المجموعة الضابطة بالنسبة للمتغيرات وهى السن ومحل الميلاد والتعليم والتدريب وإصابات العمل ومدة الخدمة ونوع العمل ومكان العمل والإقامة مع الأسرة بالقاهرة فى إحدى مناطق السكن الخمس السالفة الذكر .

وعلى ذلك حصل الباحث على مجموعتين متماثلتين فى عدد كبير من المتغيرات ولا يختلفون إلا فى المتغير التجريبى الذى يتمثل فى العوامل الأسرية الذى أراد اختبار أثره مع ظاهرة التغيب بدون عذر .

وقد انتهت الدراسة إلى مجموعة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ – ثبت بالدراسة أن التغيب عن العمل ظاهرة اجتماعية تتداخل فيها العوامل المختلفة ، أسرية وغير أسرية ، وقد تبين أن العوامل الأسرية مسئولة عن تغيب ٧٧٪ من العمال بينما كانت العوامل غير الأسرية مسئولة عن تغيب ٢٣ ٪ منهم . وكان أهم العوامل غير الأسرية ما يرجع إلى العامل نفسه مثل سوء الحالة الصحية وظروف العمل .

٢ – ثبت أن أهم العوامل الأسرية المؤدية إلى التغيب بدون عذر هى كثرة الالتزامات الأسرية بنسبة ٤٧ ٪ ، وسوء الحالة الاقتصادية للأسرة بنسبة ٣٣ ٪ والحالة السكنية وظروف الإقامة بنسبة ٢٠ ٪. وتتضمن هذه النسبة الأخيرة أموراً مثل مشاكل السكن والخلافات الأسرية ومشاكل الجيران .

الدراسة الثانية : عنوانها « الهجرة الداخلية آثارها ودوافعها ، دراسة ميدانية لخصائص المهاجرين من قرية مشيرف إلى القاهرة » . وكانت موضوع رسالة للدكتوراه فى علم الاجتماع تقدم بها محمد الغريب عبد الكريم تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد لطفى ، ونوقشت الرسالة فى يناير ١٩٧٧ وأجيزت بمرتبة الشرف الأولى .

وكانت الدراسة تهدف إلى تحقيق فروض ثلاثة هى :

١ – تنحصر دوافع الهجرة من الريف إلى الحضر فى مجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية التى يمكن ربطها بمتغيرات نفسية مثل مستوى الطموح والاتجاهات الاجتماعية .

٢ – إن ظاهرة الهجرة الداخلية عملية انتقائية لأشخاص معينين لديهم مجموعة من الخصائص أو الصفات تختلف عن قرنائهم ممن لم يهاجروا .

٣ – هناك آثار واضحة على الفرد والمجتمع نتيجة هجرة الريفيين إلى الحضر يمكن تلمسها عند دراسة المجموعة من الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لدى هؤلاء المهاجرين .

وقد درس الطالب ظاهرة الهجرة الداخلية والآثار المترتبة عليها من وجهة النظر

السوسيولوجية ، واختار قرية مشيرف من محافظة المنوفية على اعتبار أنها قرية تقع ضمن نطاق أكبر المحافظات طرداً لسكانها إلى القاهرة ، كما اختار قرية الكوامل باعتبارها تقع فى نطاق محافظة سوهاج أكبر محافظات الوجه القبلى طرداً لسكانها إلى العاصمة .

وقد استخدم الباحث المنهج التجريبى فى دراسته ، الأمر الذى تطلب دراسة عينتين إحداهما تجريبية والأخرى ضابطة ، وقد اختيرت العينتان متماثلتين فى أهم المتغيرات إلا فى متغير واحد وهو الهجرة كمتغير تجريبى ، اختير من قرية الكوامل ٢٠٠ وحدة لم تهاجر ومن قرية مشيرف ٢٠٠ وحدة لم تهاجر أيضاً ، وتشكلان العينة الضابطة ، كما اختير من سكان قرية مشيرف المهاجرين إلى القاهرة ٢٠٠ وحدة ومن سكان قرية الكوامل المهاجرين إلى القاهرة ٢٠٠ وحدة أخرى ، وهؤلاء جميعاً يشكلون العينة التجريبية .

وقد استخدم الباحث المقابلة الشخصية لجمع البيانات المطلوبة من أفراد العينة ، وقد تضمنت استمارة البحث أساساً بيانات قياس الاتجاهات نحو الهجرة ، وقياس درجة تكيف الريفيين بالحضر ، وقياس مستوى الطموح عند أفراد العينتين ثم قياس ترتيب القيم عندهم .

كما استخدم الباحث أيضاً منهج بحث الحالة الذى طبقه على مجموعة مختارة من العينتين قوامها ٤٠ حالة مناصفة بين كل من العينة التجريبية والعينة الضابطة بهدف الوصول إلى تعميمات يمكن أن تصدق على مجموعة المهاجرين من الريف إلى الحضر .

وقد انتهت الدراسة بمجموعة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلى :

١ — ثبت من الدراسة أن الفروض الأساسية الثلاثة قد تحققت بالإيجاب .

٢ — إن الاتجاه التلقائى أو الميل الشديد عند الريفيين نحو الهجرة ، كذلك الارتفاع الواضح فى درجة مستوى طموحهم هما من الدوافع الأساسية لهجرتهم إلى المدينة ، ووليد ظروف اقتصادية واجتماعية سيئة يمرون بها فى مرطنهم الأصلى .

٣ — إن الهجرة الداخلية فى الريف إلى الحضر تمد الصناعة فى مدينة القاهرة بسيل متدفق من العمال يتصفون بأن معظمهم من الذكور وفى سن الشباب وغير متزوجين ومتحررين من الارتباطات الأسرية بمجتمعهم الأصلى ، وترتفع بينهم نسبة التعليم عن

قرنائهم الذين لم يهاجروا ، كما يتميزون بأنهم غير مدربين وتنتشر بينهم البطالة ، كما يندر بينهم أصحاب الملكية الزراعية أو العقارية ، هذا بالإضافة إلى ارتفاع نسبة العاملين الفنيين والحرفيين بينهم عن قرنائهم سكان القرى .

٤ — إن المهاجر من قريتى البحث قد انتقل من وضع اجتماعى اقتصادى معين إلى وضع مشابه له نسبياً فى المدينة ، حيث كان ينتمى قبل هجرته إلى الطبقة الدنيا ، وألحق فى نفس الطبقة بالمدينة .

والآن وبعد أن استعرضنا عدداً من نماذج الدراسات التى استخدمت المنهج التجريبى يمكننا أن نقول بأنها كانت موفقة إلى حد كبير فى الانتقال بعلم الاجتماع إلى مرحلة متقدمة من الدراسة الميدانية وأنها قد استطاعت أن تصل إلى نتائج دقيقة ما كان يمكن الوصول إليها وبهذه الدقة عن غير طريق استخدام هذا المنهج .

ويهمنا فى نهاية هذا العرض أن نميز بين اصطلاحين ترددا علينا وهما «التجريب فى علم الاجتماع Empiricism» وبين « المنهج التجريبى Experimental Method»، وحيث يجب أن نلاحظ أن التجريب اصطلاح أعم وأشمل، لأنه يعنى كل ما يتعلق بالعمل الميدانى فى علم الاجتماع ، بينما يعنى المنهج التجريبى ناحية واحدة من نواحى هذا العمل الميدانى ، وعلى ذلك فاصطلاح التجريب فى علم الاجتماع يتضمن فى داخله المنهج التجريبى .

الفصل الثالث

طرق الحصول على البيانات

- مقدمة
- المقابلة الشخصية
- الاستبيان
- الملاحظة
- الاتصال التليفونى

الفصل الثالث

طرق الحصول على البيانات

مقدمة :

هناك كثير من الوسائل التى تستخدم للحصول على البيانات من الأفراد الذين يشملهم البحث ، والواقع أن هؤلاء الأفراد إذا ما وجدوا فى مكان ما وتم للباحث الاتصال بهم أمكنه استخدام أكثر من طريقة من طرق البحث الاجتماعى والنفسى للحصول على ما يتطلبه ذلك البحث من بيانات .

وعلى الرغم من أننا سندرس على حدة كلا من الوسائل الشائعة الاستخدام فى البحوث الاجتماعية العلمية إلا أن هذا لا يمنع فى أغلب الحالات من استخدام عدد من هذه الوسائل معاً فى البحث الواحد لما فى ذلك تجنب عيوب إحدى الوسائل باستخدام وسيلة أخرى معها . والطرق الشائعة الاستخدام للحصول على البيانات هى :

١ — المقابلة الشخصية .

٢ — المقابلة غير المباشرة .

٣ — الملاحظة .

٤ — الاتصال التليفونى .

وسندرس طريقة استخدام كل من هذه الطرق كما سنستعرض عيوب كل منها حتى يساعدنا على اختيار الطريقة التى تناسبنا فى بحثنا أكثر من غيرها ، على أنه يجب أن يكون معلوماً أننا أيًّا من هذه الطرق قد يأتى بنتائج مضللة أو غير صحيحة إذ لم يكن التصميم دقيقاً .

المقابلة الشخصية Personal Interview

يطلق اسم المقابلة الشخصية على طريقة التحقيق التى تتميز بالاتصال وجهاً لوجه. وعلى ذلك فهى تتطلب محققاً ماهراً للحصول على بيانات يسأل عنها عدداً معيناً من الأفراد بطريقة مباشرة. والباحثون الذين يقومون بهذه المهمة يجب أن يختاروا بدقة وأن يمرنوا على الطرق الفنية للحصول على البيانات المطلوبة وتسجيلها. وعلى تعاون المختبرين معهم.

وعلى الرغم من أن أنسب مكان لعملية التحقيق هو البيت الذى يسكنه أفراد العينة فإنه من الممكن أن تتم هذه العملية فى أى مكان آخر يوجد فيه هؤلاء الأفراد كمقر العمل أو النادى أو الشارع أو أى مكان يوجدون فيه.

وتلازم طريقة المقابلة الشخصية عمليةِ فحص عينة من عمل كل باحث، وذلك عن طريق أحد المراجعين، وهذه العملية تتضمن أن البيانات قد جمعت متفقة مع التعليمات التى وضعت بشأنها، فإذا حدث وكان هناك ما يدعو إلى الشك تمكن المراجع من مقابلة المختبر ثانية لتصحيح البيانات قبل البدء فى استخدام عملية التبويب.

ويختلف الوقت اللازم لكل مقابلة شخصية باختلاف طبيعة البحث. فقد يتروح هذا الوقت بين عدة دقائق وساعة كاملة، وهذا يتوقف طبعاً على نوع البيانات المطلوب جمعها وعلى طبيعة الأشخاص الذين يعطون هذه البيانات، وأخيراً يتوقف ذلك على الباحث نفسه ومقدرته فى الحصول على ما يريد.

ومن أهم ما تتميز به طريقة المقابلة الشخصية ارتفاع نسبة الحالات التى يمكن الحصول عليها وخاصة إذا كان كل من الإعداد والتنظيم دقيقاً، وقد وجد أنه فى الإمكان دائماً الحصول على حوالى ٨٠ ٪ من الحالات المطلوب دراستها، بل إن هذه النسبة قد تصل فى بعض الأحيان إلى ٩٥ ٪.

ويقترن استخدام طريقة المقابلة الشخصية بجداول لتسجيل البيانات Schedules يتوقف شكلها وتصميمها على نوع البيانات المطلوبة وتصميم هذه الجداول عادة للحصول

على عدد من البيانات المطلوبة على أن يستقل كل جدول بموضوع معين ، ثم تسجل فيها الإجابات التى يحصل عليها الباحث . ومن أمثلة هذه الموضوعات الناحية التعدادية كالسن والنوع وعدد أفراد الأسرة ومكان الميلاد وغيرها من بيانات لها طابع تعدادى ، كما قد تكون أسئلة الرأى أو الشعور حول موقف معين أو مشكلة اجتماعية سائدة ، كما قد تكون أسئلة تتعلق بالعادات أو التصرفات أو التفضيل بين أشياء معينة . ومهما كان الغرض من البحث فإن كلا من وضع وتصميم الجدول يتطلب مهارة فنية وسعة اطلاع وخبرة .

وقد لا تكون البيانات المطلوبة على أساس أسئلة معينة وإنما على أساس الرواية الحرة وهنا يشجع الباحث أفراد العينة على أن يتكلموا فى موضوع معين ، ثم يقوم الباحث بتسجيل اتجاهاتهم وانطباعاتهم أثناء الرواية . إلا أن هذه الطريقة كثيراً ما تكون عرضة للخطأ نظراً لتأثر الباحث بوجهة نظره هو ؛ وقد يختلف تسجيل باحثين لرواية شخص واحد .

وككل الطرق المختلفة للحصول على البيانات نجد لطريقة المقابلة الشخصية عدداً من المزايا كما نجد لها عدداً من العيوب وسنلخص ذلك فيما يلى :

مزايا طريقة المقابلة الشخصية :

١ — الحصول على نسبة كبيرة من الحالات وهذا من شأنه أن تكون العينة أكثر تمثيلا للمجموع وذلك نتيجة لإمكان الاتصال المباشر بأفراد العينة وما وجد من أن معظم الناس ميالون للمعاونة .

٢ — تميل المعلومات التى يحصل عليها الباحث إلى الصحة أكثر منها فى الطرق الأخرى ذلك لأن الباحث يمكنه استبعاد الإجابات غير الواضحة بشرح الأسئلة للمختبر ، كما يمكنه أيضاً بشىء من المهارة الحصول على الإجابة الصحيحة إذا ما حاول المختبر أن يزيف فى إجابته عمداً .

٣ — يتمكن الباحث من الحصول على بيانات إضافية عن صفات المختبر الشخصية والبيئة التى يعيش فيها ، ولهذه البيانات أهميتها فى التفسير والتقدير .

٤ — يمكن عن طريق المقابلة الشخصية استخدام بعض أجهزة القياس لمعرفة تأثر المختبر بها .

٥ — يمكن العودة إلى المختبر ثانية لتكملة بعض الأسئلة أو لتصحيح بعض الإجابات وهذا من شأنه زيادة نسبة الحالات الصحيحة .

٦ — يمكن عن طريق المقابلة الشخصية إثبات ردود الأفعال التى تبدو على المختبر حال توجيه الأسئلة إليه .

٧ — تحدد هذه الطريقة الشخص الذى أجاب عن الأسئلة بينما يصعب تحديد ذلك إذا استخدمنا بعض الطرق الأخرى كطريقة المقابلة غير المباشرة مثلا وحيث يحتمل اشتراك كل أفراد الأسرة وغيرهم فى الإجابة .

٨ — يمكن للباحث إطالة وقت المقابلة حتى يوجه المختبر نحو موضوع البحث ، وهذا مما يصعب تحقيقه فى المقابلة غير المباشرة مثلا .

٩ — يمكن للأسئلة الحساسة أن توجه إلى المختبر بمهارة ، فإذا حدث ولاحظ الباحث حرجاً على المختبر أمكنه تغيير الموضوع أو شرح المشكلة التى يقوم البحث من أجلها وذلك إذا ما بدأ المختبر فى العصيان . وإجمالا يمكن للنواحى الحساسة أن تعالج عن طريق المقابلة الشخصية عنها فى الطرق الأخرى .

١٠ — يمكن عن طريق المقابلة الشخصية أن يحصل الباحث على فترة أطول من وقت المختبر عما لو تمت الإجابة فى غير وجوده .

١١ — يمكن للغة البحث أن تبسط لتتناسب والمستوى الثقافى للمختبر ، وبذلك يمكن تجنب عيوب الأسئلة التى تتميز بعدم الوضوح أو بصعوبة الصياغة .

عيوب طريقة المقابلة الشخصية :

١ — يعيش كل من المختبَر والمختبِر عادة فى عالمين مختلفين فلكل منهما فلسفته الاجتماعية ووجهة نظره ومثله فى الحياة وفى تفسير الظواهر الاجتماعية ، وقد لا تلتقى وجهات نظرهما إطلاقاً ، وهذا من شأنه أن يؤثر فى البيانات التى يحصل عليها الباحث ويجعلها قليلة الأهمية من ناحية الأغراض العلمية نتيجة لتأثر البيانات بالشعور الشخصى للباحث .

٢ — قد يتأثر المختبر فى إجابته نتيجة خطأ فى الإدراك أو الذاكرة ، وكلما كانت الظاهرة حديثة سهل تذكرها .

٣ — تتطلب هذه الطريقة تنظيماً كبيراً فى عملية اختيار وتمويل وملاحظة الباحثين

إذ غالباً ما تكون البيانات التى يحصل عليها الباحث غير دقيقة أو غير كاملة إذا لم يكن متمرناً وموجهاً توجيهاً كاملا .

٤ — تقترن طريقة المقابلة الشخصية عادة بكثرة مصاريف الانتقال وخاصة إذا ما كانت إقامة أفراد العينة بعيدة عن بعضها وما يصاحب ذلك أيضاً من إضاعة كثير من الوقت فى معرفة محال الإقامة

٥ — تتطلب عملية التحقيق عن طريق المقابلة الشخصيه وقتاً اطول للقيام للبحث وذلك إذا قورن بالوقت الذى تتطلبه الطرق الأخرى التى سنتكلم عنها فيما بعد .

٦ — يؤخذ على هذه الطريقة أن البحث إذا تم أثناء النهار كان أغلب من توجه إليهم الأسئلة من الزوجات ، أما إذا أردنا إجابات الأزواج أصبح ضرورياً أن يتم البحث فى المساء أو فى يوم العطلة الأسبوعية ، ولما كانت الفترة المسائية المناسبة لا تتجاوز عادة ساعة أو ساعتين كان لابد فى هذه الحالة من استخدام عدد كبير من الباحثين وهذا من شأنه زيادة مصاريف البحث .

ويمكن الاستفادة من استخدام طريقة المقابلة الشخصية إذا راعينا النواحى الفنية التالية :

١ — يجب أن يسبق استخدام طريقة المقابلة كثير من الإعداد والتفكير الذين يتفقان وظروف كل وضع اجتماعى ، وعلى ذلك يجب أن تظل خطة الاستمارة مرنة وعرضة للتغيير والتعديل قبل وضعها بصورتها النهائية ، وذلك بحسب ما سنجده من ظروف المختبرين .

٢ — على الباحث أن يعلم بموضوع الدراسة عن طريق قراءاته الخاصة فى الكتب أو البحوث السابقة ، أما أن يذهب لاختبار الغير وهو جاهل أو غير واع لاصطلاحات أو تفصيلات معينة فإنه يضيع بذلك الكثير من أهمية البحث .

٣ — يفضل دائماً أن يقدم الباحث للمختبر بطريقة شخصية ، وذلك بعد أن وجد أن خطابات التقديم لا تقوم بهذه المهمة كما يجب ، على أن يكون هذا التقديم عن طريق بعض المتحمسين للبحث ، وإذن يفضل أن تكون زيارة الباحث منتظرة حتى يمكن التعرف عليه بمجرد ذكر اسمه .

٤ — يستحسن أن يكون الباحث على علم بظروف المختبر حتى يمكن تعيين الوقت والمكان المناسبين للمقابلة .

٥ — يتجاهل بعض الباحثين قواعد اللياقة والمجاملة وخاصة عند مقابلتهم لأفراد من الطبقات العاملة البسيطة ، مع العلم بأن أى فرد من هذه الطبقات تأسره الكلمة اللطيفة المهذبة .

٦ — عند دراستنا لجماعة أو منظمة أو هيئة يجب على الباحث أن يبدأ بمقابلة قيادتها أو ذوى السلطة فيها قبل أية محاولة مع من هم دونهم وذلك لكى يضمن تعاون هؤلاء القادة وتزكيتهم له عند باقى الأفراد أو الأعضاء .

٧ — عقب توجيه التحية المناسبة يبدأ الباحث فى شرح الغرض من المقابلة على أن يبسط فى هذا الشرح قدر طاقته ، وهذا الشرح ضرورى إذا راعينا حق المختبر فى أن يعلم سبب التحقيق معه . ويتوقف مدى تعاون المختبر مع الباحث على مهارته فى إقناعه لانعدام مصلحة المختبر ، ولكن الواقع يثبت غير ذلك دائماً فالباحث طالما كان حسن التوجيه ، عالماً بالموضوع الذى يحقق فيه ، موفقاً فى اختيار الوقت والمكان المناسبين ، وفى إقناع المختبر بأنه فى حاجة إلى معونته بطريقة موضوعية ولأغراض علمية وبأنه ليس ثمة دوافع أخرى تختفى وراء هذه الغاية ، إذا وفق الباحث فى كل هذا تمكن من الحصول بدون مشقة على ما يريد من بيانات .

٨ — من التعليقات التى يذكرها الباحث أثناء المقابلة ما يكون له تأثير كبير على المختبر فيكون أكثر استجابة ووضوحاً ، بشرط أن توجه هذه التعليقات بإخلاص وأن تخلو من أى أثر للتهكم ، ومن هذه التعليقات .

« قليل جداً من الناس من لديهم مثل هذه المعلومات التى لديك » .

« إن ما تذكره من بيانات له قيمة لا تقدر » .

« لقد أوضحت لى بكلامك زاوية جديدة كانت خافية على » .

« لقد أوضح كلامك كثيراً من الحقائق » . . إلخ .

٩ — على الباحث أن يخلق أثناء المقابلة جوًّا يشعر فيه المختبر بحرية فى الكشف عن قضيته بطريقته الخاصة وعلى راحته وبخاصة فى البحوث التى قد يرى المختبر أنها تهمه شخصيًّا ، والمختبر هنا فى حاجة إلى مستمع متجاوب لا إلى محقق رسمى .

المقابلة غير المباشرة

Questionnaire

يعتبر استخدام المقابلة غير المباشرة كوسيلة لجمع البيانات من أوسع الطرق انتشاراً ، ولكنها برغم ذلك تتميز أيضاً بأنها من أكثر الطرق عرضة للنقد وتتمثل هذه الطريقة فى أبسط صورها فى جدول للأسئلة يرسل بواسطة البريد إلى عدد من الأشخاص الذين يختارون كعينة للبحث على أن يقوم هؤلاء الأشخاص بملء الإجابات المطلوبة ثم إرسالها ثانية إلى القائم بالبحث. إلا أن هذه الطريقة قد تختلف فى تفاصيلها وتأخذ شكلا من الأشكال الآتية :

(ا) الاستغناء عن إرسال قائمة الأسئلة عن طريق البريد والاكتفاء بنشرها فى صحيفة أو مجلة على أن يكون الرد عليها بواسطة البريد .

(ب) إرفاق الأسئلة بنوع معين من السلع على أن يرسل المستهلك إجابته عن طريق البريد .

(حـ) إذاعة الأسئلة عن طريق الراديو أو التليفزيون .

(د) توزيع الأسئلة باليد على أفراد العينة ثم جمعها منهم ثانية باليد أو ردها عن طريق البريد .

وتتراوح استمارة البحث بين قائمة صغيرة للأسئلة لا تتجاوز الثلاثة أو الأربعة إلى كتيب صغير قد يتجاوز العشر صفحات ، كما تختلف الاستمارة من ناحية نوع الأسئلة فتأخذ أحد الأشكال الآتية :

(ا) أسئلة مقفلة ، وذلك عندما لا يتعدى المطلوب أكثر من الاختيار من بعض الإجابات المعدة فعلا فى الاستمارة . وقد تحدد هذه الإجابات تفضيل شىء على آخر أو ذكر رأى معين أو اتجاه معين .

(ب) أسئلة مفتوحة ، وذلك عندما تتطلب الاستمارة كتابة مقال أو موضوع يتصل بالبحث كأن يسأل الشخص عن العوامل التى تؤثر فى ترابط الأسرة أو عدم

ترابطها . ويستعمل هذا النوع من الأسئلة عادة عندما يتطلب الأمر دراسة عدد محدود من الحالات أو إذا كانت تمهيداً لدراسة مشكلة جديدة .

(حـ) أسئلة مصورة ، والغرض من هذه الأسئلة مجرد الترغيب فى الإجابة أو تبسيطها فيوضع السؤال لتكون إجابته عن طريق الاختيار من بين عدد من الرسوم ، فإذا كان السؤال مثلا ، كم عدد أفراد أسرتك ؟ كان على المختبر أن يختار العدد من بين عدد من الرسوم يوضح أحدها اثنين والآخر ثلاثة والثالث أربعة وهكذا .

وسنقتصر فى نقدنا لهذه الطريقة على الشكل الأكثر انتشاراً وهو ذلك الذى يتمثل فى إرسال قائمة الأسئلة ثم إعادتها بعد الإجابة عنها عن طريق البريد .

مزايا طريقة الاستبيان :

١ — يمكن للبحث أن يشتمل منطقة جغرافية أوسع من تلك التى يشملها البحث الذى تجمع بياناته عن طريق الاتصال الشخصى وذلك دون زيادة فى النفقات .

٢ — قلة نفقات البريد إذا قيست بنفقات الاتصال وجهاً لوجه .

٣ — ضآلة نفقات تمرين الباحثين وتوفير الجهد والوقت الذى يضيع بسبب هذا التمرين ، هذا علاوة على أنها لا تتطلب عدداً كبيراً منهم لجمع البيانات .

٤ — ضآلة نفقات الحالات التى يرفض أصحابها الإجابة إذا قيست بمثل تلك الحالات إذا استخدمت طريقة المقابلة الشخصية .

٥ — يكون لدى المختبر عادة الاستعداد للإجابة بحرية وصراحة أكثر مما يكون لديه فى حالة المقابلة الشخصية طالما أن شخصيته مجهولة . وإن كان هذا لا يعنى أنه ليس هناك من الناس من يخشى أن يكتب رأيه بصراحة خشية إمكان معرفة شخصيته من مجرد الكتابة .

٦ — يمكن لقائمة البحث أن تصل إلى الأشخاص الذين يصعب مقابلتهم شخصياً مثل هؤلاء الذين يسكنون القصور وحيث يحميهم خدمهم أو موظفوهم عادة من مقابلة الغرباء ، وإن كان هذا لا يمنع أيضاً من إلقاء قائمة البحث فى سلة المهملات عقب استلامها بواسطة الشخص نفسه أو سكرتيره بمجرد قراءة عنوانها .

٧ – التخلص من ظاهرة عدم استلطاف المختبر للباحث فى بعض الأحيان والتى تدعو عادة إلى عدم الاستجابة معه .

٨ – تمكن هذه الطريقة وضع أسئلة على مستوى معين غير قابل للتغيير أو التعديل فى الوقت الذى يمكن للباحث فيه فى طريقة المقابلة الشخصية أن يعدل من حقيقة السؤال أو يوحى بإجابة معينة .

٩ – تهيئ هذه الطريقة للمختبر الوقت المناسب للإجابة عن الأسئلة كما تهيئ له فرصة البحث عن بعض البيانات المطلوبة التى لا يتذكرها أو لا يكون متأكداً منها وهى فى الوقت نفسه محفوظة لديه فى مكان ما من منزله أو مكتبه .

١٠ – تدعو هذه الطريقة إلى ارتفاع نسبة الردود التى تمثل رأى رجل البيت عنها فى تلك التى تأتى عن طريق المقابلة الشخصية أو الاتصال التليفونى وحيث يمثل أغلبها رأى سيدة البيت .

عيوب طريقة الاستبيان :

١ – لا يمثل الأشخاص الذين يبعثون بردهم العينة التى أرسل إليها الاستبيان ، ذلك لأن نسبة من يردون تختلف بحسب النوع والثقافة والمستوى الاقتصادى وغيرها من المتغيرات المختلفة ، ويعتبر هذا أكبر عيب يمكن أن يوجه إلى هذه الطريقة ، بل إنه عيب يفوق وحده كل المزايا التى ذكرت لهذه الطريقة وعلى ذلك أصبح ضرورياً أن نبتعد فى دراستنا عن هذه الطريقة ما لم يصحبها من الوسائل ما يمنع تحيز العينة وذلك وبالحصول على رد أكبر عدد ممكن ممن أرسل إليهم استمارة البحث ، أو تعويض النقص عن طريق المقابلة الشخصية .

٢ – وجد أن الردود التى تصل من الأشخاص الذين أرسلت إليهم الاستمارة تكون فى العادة ضئيلة . وتتراوح نسبتها فى العادة بين ١٠٪ ، ٢٠٪ من مجموع ما يرسل . وتتغير هذه النسبة زيادة أو نقصاً تبعاً للمختبرين أنفسهم . وعلى هذا الأساس ترتفع نسبة الردود إذا روعى عدد من الأسس فى تصميم استمارة البحث خلاف الأسئلة مثل شكل الاستمارة وطولها ولون الورق المطبوعة عليه والخطاب المرفق ، ومدى تحدى المعلومات للمختبرين وإثارتها لهم .

٣ — يكتب المختبر إجاباته دون مساعدة الباحث ، وهذا من شأنه احتمال الخطأ فى فهم بعض الأسئلة أو عدم الإجابة عن بعضها أو كتابة إجابات يصعب تفريغها مما يؤدى إلى استبعاد نسبة كبيرة من الردود . ويمكن تحاشى هذا العيب إذا راعينا فى تصميم الاستمارة البعد عن الأسئلة الغامضة ، والتى تأتى فى الوقت نفسه بإجابات غامضة ، وإذا راعينا أيضاً أن تكون أسئلتنا محددة وتتميز بالبساطة والسهولة ، وأن نتجنب الأسئلة التى توحى بإجابات أو تقديرات شخصية ، فلا نسأل مثلا : ما رأيك فى البرامج التليفزيونية ؟ ونسأل بدلا عن ذلك ، كم عدد الساعات التى تقضيها أمام التليفزيون ؟ أو أى البرامج تحب ؟

٤ — يصعب فى كثير من الحالات صياغة الأسئلة بالبساطة والوضوح المطلوبين لكى يفهمها كل الأفراد بمختلف ثقافاتهم ومستوياتهم الحضارية ، وذلك حتى يتمكن المختبر العادى أو أقل من العادى من فهمها .

٥ — لضمان الحصول على أكبر نسبة من الردود يلجأ مصمم الاستمارة إلى اختصار عدد الموضوعات وعدد الأسئلة مع ما قد يصاحب هذه التضحية من قصور فى البحث .

٦ — صعوبة الاعتماد على صحة البيانات وصدقها فى غياب الباحث .

٧ — يصعب عمليًّا إعادة الاستمارات غير الواضحة أو الناقصة إلى أصحابها لتكملتها أو توضيحها .

٨ — يفضل الناس الكلام على الكتابة عادة وعلى ذلك فإذا أردنا ردهم كتابة تطلب هذا أن تكون لغة الجدول من نوع معين يجذب الاهتمام ، وقد يكون ذلك على حساب بعض الموضوعات أو الأسئلة .

٩ — يصعب الحصول على قائمة بعناوين الأفراد ذوى الدخل المحدود .

١٠ — يميل أغلبية الناس إلى التأخر فى الرد وهذا يتطلب الانتظار فترة طويلة لضمان الحصول على أكبر عدد من الردود .

١١ — يستبعد من قائمة الأسئلة عادة الأسئلة التى قد تضايق أو تحرج المختبر بينما يكون التمهيد لها سهلا فى طريقة المقابلة الشخصية .

هذا ويمكن التغلب على عدد كبير من العيوب السابقة إذا ما وزع الاستبيان باليد عن طريق بعض من يهتمون بالمساعدة أو يكون لديهم الاستعداد لذلك على أن يكونوا مسئولين عن إعادة الردود ثانية . وقد نجحت هذه الطريقة فى بعض البحوث التى اعتمدنا فيها على طلبة المدارس فى تسليم الاستبيان لأولياء أمورهم . كما يمكن أن نتجنب تحيز العينة أيضاً عن طريق الاستعانة بالمقابلة الشخصية فى الحالات التى لم ترد بعد فترة معينة .

الملاحظة Observation

تعتبر الملاحظة من أهم الطرق المستخدمة لجمع البيانات . كما أنها فى الوقت نفسه أقدم هذه الطرق جميعاً إذا لم يكن عند الإنسان فيما مضى سوى هذه الطريقة للدراسة ، والواقع أن كثيراً من أنماط السلوك يمكن دراستها عن طريق الملاحظة المباشرة كما هو الحال فى ملاحظة الأطفال وتصرفاتهم عندما يجتمعون معاً ، كيف يلعبون وكيف يتشاجرون وكيف يتعاونون وكيف يعتدون على بعضهم ، كل هذا يمكن ملاحظته فى كثير من السهولة واليسر . أما من ناحية دراسة المشاكل الاجتماعية فقد خلقت الملاحظة مجالات كثيرة للدراسة ، بدأت أولا بالكتابات الصحفية التى كثيراً ما أوحت بدراسة عدد كبير من المشاكل علمياً ، وعلى الرغم من أن العلماء لا يقبلون فى العادة ما يكتبه الصحفيون كأساس للتعميم إلا أنهم كثيراً ما يستفيدون فى دراساتهم العلمية بما يكتبه هؤلاء الصحفيون .

وتنقسم الملاحظة كوسيلة لجمع البيانات إلى نوعين يختلفان عن بعضهما فى الطرق التى تجمع بواسطتها هذه البيانات . وهذان النوعان هما الملاحظة غير الموجهة والملاحظة الموجهة وسنتكلم عن كل منهما :

الملاحظة غير الموجهة Non-Controlled Observation :

وهى الملاحظة التى يلجأ إليها الباحث دون استخدام آلات ضابطة أو وسائل معينة لقياس الظاهرة موضوع الدراسة . وفى هذه الحالة إذن ، تترك الظروف التى تتم فيها الملاحظة ، والمواد التى تسجل للباحث نفسه وإلى العوامل التى قد تؤثر عليه . وقد استخدم كثير من الباحثين الأول هذا النوع من الملاحظة للوصول إلى البيانات التى يريدونها كما كان يفعل بوث ولنبرج Lundberg ، وقد تميزت دراساتهم بما كان يصاحبها من بيانات وصفية .

ويعيب طريقة الملاحظة غير الموجهة أنها تعطينا شعوراً بأننا نعلم عما نلاحظه أكثر مما نعلم فعلا ، وعلى هذا الأساس يتجه بنا شعورنا نحو التحيز دائماً . ولكننا مع ذلك

وفى كثير من الظروف لا نجد أمامنا سوى هذا النوع من الملاحظة لاستخدامه لأن مواقف الحياة التى يمكن أن نطبق عليها ظروف الملاحظة الموجهة قليلة . وهذا يدعونا إلى أن نلجأ إلى الملاحظة غير الموجهة فى حالات كثيرة ، وما علينا والأمر كذلك إلا أن نختار الوقت المناسب للملاحظة ، وذلك من ناحية الظروف التى تتم فيها الملاحظة وأوضاعها الاجتماعية المناسبة ، ولهذا يحسن دائماً أن ندخل على هذا النوع من الملاحظة عدداً من الطرق والأجهزة التى تتناسب وموضوع الدراسة كلما أمكن ذلك .

وقد تتميز الملاحظة غير الموجهة بعدم المشاركة وذلك حينما تكون الملاحظة عن بعد ودون علم الأشخاص موضوع الملاحظة كأن يمر الباحث فى أحد الأحياء للملاحظة ما يفعله الناس ثم يسجل مايراه دون علم هؤلاء الناس ويطلق على هذا النوع من الملاحظة :

Non-controlled and non-participant observation.

ويعيب هذا النوع أن أثر العامل الشخصى يكون واضحاً وذلك حينما لا يتمكن الباحث من فهم أو تعليل كثير مما يدور أمام عينيه .

وقد تتميز الملاحظة غير الموجهة بالمشاركة ويطلق عليها :

Non-controlled participant observation.

والباحث فى هذه الحالة يعيش وسط الجماعة موضوع الملاحظة كما قد يشاركها حياتها وبذلك تكون الجماعة على علم بشخصيته وبالغرض من وجوده معها ومن دراسته وبذلك يمكننا أن نقرر بأن شارلز بوث قد استخدم طريقة الملاحظة المشاركة فى دراسته لسكان لندن حينما اشترك فى حياة هؤلاء الناس لفترة من الزمن استطاع خلالها أن ينفذ إلى أعماق حياتهم الخاصة وكان من المستحيل أن يصل إليها ما لم يكن قد استبعد تلك الفوارق الاجتماعية والعقلية التى كانت تقوم حائلا بينه وبين هؤلاء الناس ، وذلك عن طريق المشاركة الفعلية .

أما فى بحث Middletown لروبرت وهلين لينـد فقد لجأ الباحثون الذين كانوا يعاونونها فى البحث إلى المعيشة مع الأسر فى غرف يؤجرونها من أصحابها وذلك لكى تسهل عليهم عملية الملاحظة المشاركة ، موجهة كانت أو غير موجهة . ويكتب روبرت وهلين لينـد عن ذلك : « لقد كان القائمون بالبحث يشاركون السكان حياتهم فى المدينة كلما أمكن

ذلك ، كانوا يعقدون الصداقات ويشاركون فى شتى المناسبات كما لو كانوا من سكان ميدلتون، وقد مكنهم هذا من الحصول على بيانات تلقائية كثيرة (بعيدة عن التكلف) ، كانوا يتناولون عشاءهم أحياناً مع مدير أحد المصانع ، وأحياناً أخرى مع أحد زعماء العمال أو مع أحد عمال اليومية ، كما كانوا خلال فترة البحث يذهبون إلى الكنائس ويحضرون الاجتماعات المدرسية والسياسية وجلسات المحاكم والاجتماعات العمالية والمحاضرات وحفلات العشاء السنوية ، كما كانوا يترددون على الأندية ويشاركون حتى فى حفلات اللعب بالورق وهكذا تمكنوا فى نهاية فترة الدراسة من الحصول على كثير من البيانات التى ما كان يمكن الحصول عليها إلا عن هذا الطريق »[1].

الملاحظة الموجهة Controlled Observation :

تعتبر الملاحظة الموجهة امتداداً للملاحظة غير الموجهة من ناحية أن الثانية هى التى مهدت الطريق للأولى . وتقوم الملاحظة الموجهة على أسس منظمة وخطط محددة تسبق عملية الملاحظة نفسها وتوجه هذه العملية فى الوقت نفسه . وعلى ذلك وجدناها تتميز بتعريفها الدقيق للوحدات التى ستكون موضع الملاحظة ، والبيانات التى ستسجل دون أن يترك ذلك لعامل الصدفة أو للاختيار الوقتى ، كما تتميز أيضاً باستخدام الوسائل الآلية والاختبارات وكل ما يساعد على الدقة فى الملاحظة قدر الاستطاعة .

ومن أهم الدراسات التى قامت على أساس هذا النوع من الملاحظة تلك التى قامت فى ميدان الطفولة وحيث استخدمت مجموعة متنوعة من الأدوات مثل أجهزة تسجيل الصوت والحركة وجداول تسجيل مراحل النمو والتى تستخدم فى العادة فى مرحلة ما قبل بلوغ سن المدرسة بدلا من اختبارات الذكاء . كما تستخدم الملاحظة فى هذا المجال أيضاً عدداً من الأدوات الميكانيكية والجداول والرسوم والتى تستخدم لتسجيل ما يحدد وعى الطفل الفعلى وتصرفاته ومدى تحكمه فى جسمه ورد الفعل الاجتماعى ، على أن يسجل فى الجدول تفصيلات ما يقوم به الطفل من جهد نحو هدف معين .

ومن هذه البحوث ما عمل على أطفال الحضانة فى الولايات المتحدة وأشهرها

---

(١) The Lynds, Middletown, p. 506.

ما قامت به دوروثى سوين Swaine فى معهد Yale للعلاقات الإنسانية، وحيث كان الأطفال يهيأون للملاحظة دون تنبيههم إلى أنهم ملاحظون ، وكان الاهتمام يوجه أساساً إلى التصرفات الاجتماعية وأساليب رد الفعل نحو مجموعة مختلفة من المؤثرات يوجهها الأطفال أثناء وجودهم فى الحضانة وخاصة ما تعلق منها بالأشياء التى تخص غيرهم ، وتصرفاتهم نحو غيرهم من الأطفال . وإذن فالملاحظة كأداة من أدوات البحث تتميز بأنها تسمح بتسجيل السلوك وقت حدوثه مما يقل معه تأثير ما يمكن للذاكرة أن تحرفه . هذا علاوة على أن هناك كثيراً من الموضوعات التى يكون من الأفضل أن تستخدم فيها طريقة الملاحظة إذا أريد دراستها كما هو الحال فى دراسة العادات الاجتماعية وطريق التعامل بين الناس وطريق تربية الأطفال ، كما تتميز الملاحظة عن غيرها من الطرق بأنها لا تتطلب من الأشخاص موضع الملاحظة أن يقرروا شيئاً ، بل إنهم فى كثير من الأحيان لا يعلمون أنهم موضع الملاحظة إطلاقاً ، وبذلك تخلصنا الملاحظة من حرج المقابلات الشخصية والاختبارات والتجارب التى قد يتردد الناس فى المعاونة فيها أو الإجابة عن أسئلتها ، كما قد يضيقون بها أولا يجدون لها متسعاً من الوقت .

هذا ولا تخلو طريقة الملاحظة من عيوب ، فقد يتطلب الأمر دراسة ظواهر معينة عن طريق الملاحظة ولكن قد يصعب فى حالات كثيرة التنبؤ بوقوعها مقدماً ، بل إنه فى حالة وقوعها قد نجد أن ملاحظتها تتطلب كثيراً من العناء والجهد . وهذا ما يحدث إذا أردنا ملاحظة ما يحيط بظاهرة كالزواج أو الوفاة فى مجتمع معين ، وحيث يضطر الباحث إلى انتظار مثل هذه الظواهر فترة غير محدودة ، هذا علاوة على أن هناك من الموضوعات ما يصعب أو تتعذر ملاحظته كما هو الحال فيما يختص بالسلوك الجنسى أو الخلافات العائلية وحين يصبح من الأيسر فى مثل هذه الحالات أن نلجأ إلى طرق أخرى كالمقابلة الشخصية .

الاتصال التليفونى Telephone Interview

يعتبر الاتصال التليفونى للحصول على البيانات فى البحوث الاجتماعية من أحدث الطرق التى استخدمت لهذا الغرض ، وبخاصة للحصول على البيانات التى تتعلق برأى المستمعين إلى الراديو أو مشاهدى التليفزيون ، كأن يسأل الشخص الذى يرد على المكالمة إن كان جهاز الراديو وقت طلبه مغلقاً أو شغالا ، فإن كان شغالا ، يسأل عن البرنامج أو المحطة التى يستمع إليها ، كما قد يسأل عن رأيه فى برنامج معين يكون قد استمع إليه خلال فترة معينة تسبق الاتصال التليفونى .

ولا تقتصر طريقة الاتصال التليفونى على البيانات الخاصة بمستمعى الراديو ومشاهدى التليفزيون بل إن كثيراً من البحوث التى يرغب أصحابها فى توفير الوقت والنفقات تلجأ إلى استخدام هذه الطريقة كأن يقوم الباحث بالاتصال بربات البيوت للحصول على رأيهن فى سلعة معينة أو الحصول على بيانات تتعلق بأجور الخادمات وساعات عملهن وكيفية تأمينهن وغير ذلك من موضوعات .

ويمكن عند اختيار العينة أن يقتصر الاتصال التليفونى على من لديهم تليفونات ، وأن يكون الاتصال شخصياً بمن ليس لديهم تليفونات .

ونظراً لما توفره هذه الطريقة من وقت ونفقات أصبحت — وخاصة فى الولايات المتحدة — من الطرق التى يعتمد عليها فى البحوث التى تتطلب السرعة والرخص ، إذ يمكن لباحث واحد أو باحثين عمل الاستفسارات اللازمة بين جزء كبير من سكان مجتمع ما فى وقت قصير ذلك لأنه فى الإمكان الاتصال بعدة مئات من الأفراد فى يوم واحد وطريقة الاتصال التليفونى كغيرها من الطرق لها مزاياها وعيوبها ويمكن تلخيصها فيما يلى :

مزايا طريقة الاتصال التليفونى :

١ — تعتبر أسرع طريقة للحصول على البيانات إذ يمكن للباحث أن يقوم بثلاثين اتصالا فى ساعة واحدة إذا كانت مهمته قصيرة .

٢ – وجد أن نسبة رفض الإجابة محدودة فى العادة ولا تزيد على ٣ ٪ من أفراد العينة ، وينحصر العيب هنا فى عدم رفع السماعة إطلاقاً أو فى انشغال التليفون .

٣ – يمكن استخدام هذه الطريقة فى الوقت المناسب للحصول على البيانات وهذا من شأنه استبعاد عامل النسيان أو ما تحرفه الذاكرة .

٤ – يسهل تمرين ومراقبة الباحثين وحيث يمكن اجتماعهم مع المراقبين أو المراجعين فى غرفة واحدة أثناء العمل .

٥ – يسهل تعديل الأسئلة وجعلها تتناسب من باحث لآخر .

٦ – قلة نفقاتها والتى لا تتجاوز قيمة المكالمة التليفونية .

٧ – الاطمئنان إلى توزيع أفراد العينة وذلك لسهولة الحصول على قائمة بأسمائهم وعناوينهم .

٨ – تعتبر هذه الطريقة مطمئنة من ناحية تمثيل أفراد العينة للمجموع إذا ما كانت الدراسة تتعلق بطبقات معينة يملك أغلب أفرادها أجهزة تليفون .

٩ – يمكن باستخدام هذه الطريقة أن يشمل البحث أفراداً تفصل بينهم مسافات طويلة فى مدينة معينة دون أن يكون ذلك سبباً فى زيادة النفقات .

عيوب طريقة الاتصال التليفونى :

١ – لا يكون أفراد العينة فى العادة ممثلين للمجموع بشكل يدعو إلى الاطمئنان . ذلك لأن هؤلاء الذين يملكون تليفونات فى بيوتهم لا يمثلون سكان أى مجتمع تمثيلا صحيحاً لأنهم يكونون فئة معينة من ناحية الدخل . ولما كان للوضع الاقتصادى دائماً ارتباط بالوضع الاجتماعى أصبح مما يعيب البحث الاقتصار على عينة من هذا النوع ، والعينة على هذا الأساس تكون متحيزة ومضللة إن لم تعتمد هذه الطريقة على وسائل تعمل على استبعاد هذا العيب بأن نضيف إلى العينة نسبة ممن ليست لديهم تليفونات نحصل على بياناتها عن طريق الاتصال الشخصى مثلا . أما إذا كان البحث مركزاً على طبقة معينة كالطبقة الوسطى أو الطبقة الغنية فى مجتمع من المجتمعات فإن العينة تصبح أكثر تمثيلا للمجموع .

٢ – لا يمكن للمكالمة إلا أن تقتصر على عدد محدود من الموضوعات ، لأن فترة

الاتصال يجب أن تكون قصيرة في حدود دقيقتين مثلا ، أما إذا كانت قائمة البحث طويلة فغالباً ما تدعو إلى ضيق المختبر الذى قد يلجأ إلى إنهاء المكالمة أو إعطاء بيانات خاطئة عمداً يضطر الباحث إلى قبولها دون مناقشة خاصة وأنه لا يرى المختبر شخصياً ، ولا يمكن والأمر كذلك أن يستنتج ما يدور فى ذهنه من مغالطة .

٣ — يصعب عن طريق الاتصال التليفونى الحصول على البيانات الشخصية مثل تلك التى تتعلق بالسن والدخل والجنسية .

٤ — يصعب الإباحة تليفونياً ببعض البيانات التى تتعلق بالرأى خاصة وأن وضع المختبر لا يمكنه من التأكد من شخصية الذى طلبه .

٥ — تقتصر مثل هذه البحوث على المدن نظراً لأن نسبة من لديهم تليفونات فى المجتمعات الريفية ضئيلة جداً .

٦ — لا يكون لدى المختبر فى العادة الوقت الكافى لتركيز إجابته أو تهيئة نفسه للإجابة .

٧ — يكون الباحث فى وضع لا يمكنه من ملاحظة الأثر الذى يتركه السؤال على المختبر ، ولهذا أهميته فى بعض البحوث .

٨ — يصعب تأمين سرية البيانات فى التليفونات المشتركة ، وهى شائعة فى الخارج .

٩ — لا تستغرق المكالمة سوى فترة قصيرة جداً ، والباحث لكى يعمل أربع ساعات فى اليوم مثلا لا بد له أن يقوم بعدد كبير من المكالمات ، وفى هذا كثير من المضايقة والملل .

الفصل الرابع

العينات وطرق اختيارها

- مقدمة
- طرق اختيار العينة
- طرق اختيار وحدات العينة
- حجم العينة

الفصل الرابع

العينات وطرق اختيارها

مقدمة :

من أهم المسائل التى تواجه الباحث الاجتماعى عند شروعه فى القيام ببحثه هو تحديد نطاق العمل . وعلى الرغم من أن لكل باحث ظروفه الخاصة التى تحدد نطاق العمل اللازم له والمجهود والمال الممكن بذلهما فى سبيل إنجازه ، إلا أنه من الواضح أنه كلما زاد عدد المفردات التى يشملها البحث أيًّا كان نوعه أصبحت النتائج التى يتوصل إليها الباحث مستندة إلى أساس أقوى ، غير أن مشقة العمل من جهة وإمكان الحصول على نتائج لا بأس بها بإجراء التجارب على عدد محدد من المفردات من جهة أخرى ، هو الذى يجعل البحوث العلمية تقوم على أساس دراسة عينات محدودة ، مختارة من المجموعات التى نرغب فى التعرف على خواصها بدلا من دراسة المجموعات الأصلية ذاتها . والواقع أنه فى معظم الحالات يكاد يكون من المستحيل عمليًّا وصف المجموعات الكبيرة إلا عن طريق دراسة عينات تمثلها ، على أنه من الواضح أن محاولة التعرف على خواص المجموع عن طريق دراسة عينة مختارة منه تنطوى على بعض التضحية فى دقة النتائج التى نحصل عليها . ويتوقف مقدار هذه التضحية إلى حد كبير عن طريقة اختيار العينة التى ستكون موضوع البحث .

وهناك نقطتان يجب مراعاتهما فى اختيار العينات ، تختص الأولى بخلو العينة من التحيز فى صوره المختلفة ، وتختص الثانية بحكم العينة وعلاقته بدرجة الدقة التى يمكن أن نتوقعها عند تعميم النتائج التى نحصل عليها من دراسة العينة على المجموع الذى اختيرت منه ، وهو الهدف الذى نسعى إليه دائماً من دراسة العينات ، كما يجب أن يكون هناك تعريف واضح للمجموع ومفرداته يوضح تماماً ماذا تمثل العينة .

طرق اختيار العينة

هناك عدد من الطرق التى تتبع فى اختيار العينة منها الطريقة العشوائية والطريقة الطبقية والطريقة الغرضية ، Purposive Sampling والتى تتمثل فى اختيار عينات تكون متوسطاتها عند الاختيار متفقة مع المتوسطات المعروفة للمجموع وذلك فى عدد من النواحى تمهيداً لاختيار نواح أخرى غير معروفة . ولاختيار العينة طريقة أخرى لا يراعى فيها أى نظام معين فى الاختيار ويطلق عليها Unsystematic Sampling . وسنكتفى فى هذا الجزء من الكتاب بدراسة الطريقتين الأوليين لأنهما أوسع طرق اختيار العينة انتشاراً وأكثرها اعتماداً على قانون الاحتمالات وأبعدها عن التحيز تبعاً لذلك .

الطريقة العشوائية Random Sampling :

يطلق هذا الاسم على طريقة اختيار العينة التى تعطى كل مفردة من مفردات المجموع نفس الفرصة للظهور ، وسنرى فيما بعد كيفية ممارسة هذه الطريقة . وهى تتميز بما يلى :

١ — لا تتطلب معرفة سابقة بمميزات أو صفات المجموع ولا بكيفية توزيع هذه الصفات بين أفراد ، وعلى ذلك فلا داعى لمعرفة صلة الأفراد بالظاهرة موضوع الدراسة مقدماً .

٢ — تعتمد هذه الطريقة أكثر من غيرها على قانون الاحتمالات مما يبعدها عن عنصر التحيز إذا كان استعمالها دقيقاً .

وإلى جوار هاتين الميزتين ، نجد لهذه الطريقة عيوباً منها :

١ — يحتاج الأخذ بها إلى قائمة حديثة كاملة بأسماء مفردات المجموع .

٢ — يتطلب استخدامها ترقيم كل أفراد المجموع مع ما يتبع ذلك من عملية الاختيار وما تتطلبه من إضاعة كثير من الوقت والجهد .

٣ – يتطلب الأخذ بها أن يكون حجم العينة كبيراً إذا قيست بحجمها إن اختيرت بالطريقة الطبقية التى سنشرحها بعد .

٤ – يكون أفراد العينة الذين يختارون بهذه الطريقة فى أغلب الأحوال مبعثرين جغرافياً فى مدى أوسع مما يعمل على بذل جهد أكبر ونفقات أكثر .

الطريقة الطبقية Stratified Sampling :

تختلف هذه الطريقة عن الطريقة العشوائية فى أننا نبدأ أولا عند الأخذ بها بتصنيف المجموع طبقياً إلى قسمين أو أكثر ، ثم نأخذ العينة المطلوبة بعد ذلك من كل طبقة بإحدى الطرق العشوائية العادية ، فإذا أردنا مثلا أن نحصل على عينة تمثل طلبة إحدى كليات الجامعة تطلب الأمر أولا أن نقسم المجموع إلى قسمين الأول للطلبة والثانى للطالبات ، فإذا أردنا عينة قدرها ١٠٪ أخذنا من كل من القسمين النسبة المطلوبة بإحدى الطرق العشوائية . وبذلك نضمن أن تكون العينة ممثلة للنوعين بحسب توزيعهما الحقيقى فى المجموع ، بينما لو كنا قد أخذناها منذ البداية بالطريقة العشوائية من قائمة واحدة ما كان مؤكداً أن تصبح العينة ممثلة للتوزيع الحقيقى . وعلى ذلك يمكن إجمال مميزات هذه الطريقة فيما يلى :

١ – ضمان تمثيل العينة للمجموع عن طريق أخذ نسبة معينة من كل طبقة .

٢ – يمكن باستخدام هذه الطريقة الاكتفاء بعدد محدود من كل طبقة ، ويدعو ذلك بالتالى إلى صغر حجم العينة ، وذلك بعد أن تأكدنا من تقسيم المجموع إلى طبقات متقاربة ، وهذا يدعو فى النهاية إلى توفير الجهد والنفقات .

٣ – يمكن فى بعض الحالات باستخدام هذه الطريقة أن نحصل على عينة تتميز بعدم بعثرتها جغرافياً مثل تلك التى نختارها بالطريقة العشوائية ، وذلك فى حالة اختيار عينة تمثل مدينة معينة قبل وبعد تقسيم المدينة إلى أحياء معينة .

٤ – تفيد الطريقة الطبقية كثيراً فى حالة استخدامنا لطريقة المقابلة غير المباشرة فى الحصول على البيانات لأننا سنعرف منذ البداية نواحى التميز فى العينة لنعمل على تجنبها باستخدام بعض الوسائل الأخرى لتكملة الحالات الناقصة .

ولهذه الطريقة عيوبها أيضاً من ناحية أن تقسيم المجموع إلى طبقات معينة، ثقافية أو اقتصادية أو اجتماعية يتطلب أن يكون القائم بالتصنيف على علم مقدماً بعدد كبير من المتغيرات وصلتها بموضوع البحث ، هذا علاوة على أن عملية التصنيف فى حد ذاتها مضيعة للجهد والوقت .

طرق اختيار وحدات العينة

يجب أن يكون اختيار مفردات العينة على أساس عشوائى بصرف النظر عن الطريقة التى تستخدم لاختيار العينة نفسها ، عشوائية أو طبقية أو غيرها ، وفيما يلى توضيح لطرق هذا الاختيار :

١ – **الاختيار بالقرعة** Selection by lot :

ويتمثل هذا الاختيار فى إعطاء كل فرد من المجموع رقماً يكتب على ورقة صغيرة ، على أن تكون كل الأوراق متساوية فى المساحة والسمك ، ثم توضع الأوراق فى إناء أو صندوق وتخلط جيداً ثم يسحب العدد المطلوب من الأوراق دون نظر للإناء أو الصندوق أثناء عملية السحب . ولاشتراط تساوى الأوراق فى المساحة والسمك أهمية من ناحية أننا إذا كنا نسحب أوراقاً مطوية فى إناء مثلا نجد أن الأصابع تميل إلى التقاط الأوراق الكبيرة .

وواضح من هذه الطريقة أنها مضيعة للوقت من ناحية ضرورة إعداد قطع صغيرة من الورق ثم إعطاء رقم لكل اسم أو حالة فى القائمة الأصلية للمجموع ، ثم كتابة الأرقام على الأوراق ، وأخيراً تسجيل الأسماء من الكشف الأصلى بعد السحب . وقد يستعاض عن هذه الطريقة بقائمة الأرقام العشوائية ، وهى قوائم رتبت الأرقام فيها بطريقة غير متحيزة بحيث تعطى الأرقام جميعاً فرصة متماثلة للظهور ، كما قد تستعمل عجلة الروليت فى اختيار الأرقام عشوائياً . وإن كان من الضرورى التأكد من أن العجلة غير متحيزة لأرقام معينة .

٢ – **الاختيار على أبعاد منتظمة** Selection at regular intervals :

وتتمثل هذه الطريقة فى اختيار العدد المطلوب للعينة من القوائم أو من بطاقات الأسماء على أبعاد رقمية ثابتة أو مسافات معينة واحدة ، فإذا أردنا اختيار عشر الأسماء التى فى القوائم مثلا اتبعنا لذلك الخطوتين التاليتين :

(ا) إحضار عشر أوراق صغيرة ورقمناها من واحد إلى عشرة ، ثم نسحب واحدة منها لتحديد الرقم الذى سنبدأ به ولنفرض أنه كان سبعة .

(ب) نبدأ بعد ذلك باختيار الاسم رقم ٧ ثم ١٧ ، ٢٧ ، ٣٧ وهكذا حتى تنتهى كل الأسماء التى فى القوائم . وتعتبر الحالات التى اختيرت هى العينة المطلوبة .

ويمكن القيام بنفس الخطوتين بالنسبة للبطاقات إن كان لكل فرد فى المجموع بطاقة. فإذا ما كانت هناك صعوبة لكبر عدد البطاقات أو لأن البطاقات مثبتة فى أحد الأدراج يصبح من الأفضل فى هذه الحالة أن يكون الاختيار على أساس الأبعاد المتساوية وذلك بضم البطاقات إلى بعضها واستعمال المسطرة لاختيار بطاقة كل سنتيمتر واحد أو كل ٢سم بحسب ما يتطلبه حكم العينة . ويشترط فى هذه الحالة أن يكون سمك البطاقات واحداً وإلا كانت النتيجة متحيزة للبطاقات السميكة . وإذا كانت البطاقات مثبتة فى أكثر من درج ينقل الباقى بعد آخر اسم إذا تبقى شىء لكى يضاف إلى البطاقات التى فى الدرج الذى يليه .

وقد يكون الاختيار على أساس مكان أو أمكنة معينة فى القائمة كأن يختار مثلا أول اسم أو آخر اسم أو الاسم الذى يتوسط كل صفحة وإلى آخر ذلك من طرق للاختيار .

٣ – **الاختيار على أساس المربعات** Selection from grids :

وهى طريقة تستعمل إذا أردنا اختيار عينة تمثل إقليماً أو قطراً أو مدينة بواسطة تقسيم الخريطة الخاصة بالإقليم أو المدينة إلى مربعات متساوية . وليس من الضرورى تقسيم الخريطة نفسها وإنما يستخدم لذلك عادة ورقة شفافة مقسمة إلى مربعات توضع فوق الخريطة ثم ترقم مربعاتها إذا لم تكن مرقمة ، ونختار بعد ذلك الأماكن المطلوبة كعينة على أساس الأرقام التى تكون قد اختيرت عشوائياً ولتكن مثلا المربعات رقم ١٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ إلخ ولهذه الطريقة عيوبها فى الدراسة لأنها قد لا تعبر عن سكان القطر أو المدينة لأنها تعطى المربعات ضئيلة أو عديمة السكان نفس الفرصة التى تعطيها للمربعات مكتظة السكان ، كما أنها تعطى الأقاليم الكبيرة فى القطر الواحد فرصة للظهور أكبر من تلك التى تعطيها للأقاليم الصغيرة .

٤ – الاختيار بواسطة الباحثين أنفسهم :

قد يترك الأمر فى بعض البحوث للباحثين أنفسهم أمر اختيار أفراد العينة ، ويحدث ذلك فى العادة عندما لا يكون هناك مجموع محدد ، كأن يكون هناك اتجاه للاستفتاء حول موضوع أو مشكلة معينة ، ويترك للباحثين فى هذه الحالة حرية اختيار عينة عشوائية بقدر الاستطاعة . ويأخذ على هذا النوع من العينات أنها كثيراً ما تكون متحيزة إذا لم يراع فى اختيارها عدد من الاحتياطات التى يمكن تلخيصها فيما يلى[1] :

١ – تجنب الاختيار المتعمد ، فلا يختار أفراد العينة بحكم كونهم تحت يد الباحث أو لأنهم مهتمون بموضوع البحث أو بحكم مستواهم الثقافى .

٢ – عدم تركيز الاختيار فى أحياء معينة أو أماكن بالذات كالمحلات التجارية أو المصانع .

٣ – عدم سؤال الأقارب أو الأصدقاء القريبين .

٤ – عدم البحث عن أشخاص معينين بحكم استعدادهم للتعاون أو لأن لديهم آراء طريفة .

٥ – تكون مقابلة المختبرين فى منازلهم إذا كان للبحث صلة بالمسكن .

٦ – عدم التمييز فى اختيار البيوت ، فلا يكون هذا الاختيار على أساس معرفة الباحث لأهلها أو لأنها مما يسهل دخوله أو لأن مظهرها يعجب أو لا يعجب الباحث .

٧ – عدم اختيار أكثر من فرد واحد من الأسرة فى البحث الواحد .

٨ – عدم اختيار الأشخاص وهم فى وسط جماعة .

٩ – القيام بعدد من الاختبارات فى فترة بعد الظهر وكذلك خلال العطلة الأسبوعية .

١٠ – أخذ فكرة عامة أولا من المنطقة المطلوب عمل البحث فيها لأن هذا يساعد على الاختيار غير المتحيز .

---

(١) Mildred Parten; Survey, Polls and Samples. (N.Y., 1950) pp. 271 - 272.

حجم العينة Size of Sample :

إن أهم ما يسعى إليه الباحثون فى الدراسات الحقلية من ناحية اختيار العينة هو أن تكون هذه العينة ممثلة للمجموع تمثيلا صحيحاً حتى تصبح النتائج مما يمكن تعميمه على المجموع . أما عن حجم العينة ذاته فإنه عامل ثانوى من ناحية الصغر أو الكبر ما دام تمثيل المجموع متوافراً . وعلى ذلك فلا صحة لما يقال من أن العينة يجب أن تكون على درجة معينة من الكبر أو الصغر أو أن العينة يجب أن تحددها نسبة مئوية من مجموع المفردات لا تقل عن ١٠٪ أو عشرين فى المائة وإلى آخر ذلك من النسب التى قد يكون توافرها مستحيلا فى كثير من البحوث التى تتميز بارتفاع عدد من يشملهم البحث . حتى تبلغ هذا العدد الملايين فى بعض الحالات . وكما يغالى البعض فى ضرورة إجراء البحث على عينة كبيرة يمكن الاعتماد عليها ، يرى البعض الآخر على العكس من ذلك أنه إذا أمكن اختيار العينة بحيث تكون نموذجاً صحيحاً للمجموع أصبح فى الإمكان الحصول على نتائج دقيقة من العينة تصل فى حجمها إلى ٠,٠١٪ من المجموع [١] .

ويقول رمرز Remmers فى موضوع تحديد حجم العينة « تكون العينة كافية إذا كانت دقيقة وممثلة ، وتعتمد كفايتها على الطريقة المستعملة فى اختيارها ، وعلى نوع التحقيق . ومع أن حجم العينة يعتبر عنصراً هاماً فى تحديد كفايتها ، إلا أن الأساس لا يجب أن يكون النسبة المئوية للعينة إلى المجموع ، بل معرفة مدى كفاية العينة للتعميم »[٢] .

وتقول ميلدرد بارتن Parten « إنه لمن الخطأ أن يكون حجم المجموع هو الذى يحدد حجم العينة الكافية . . . . يجب ألا يكون اهتمامنا مركزاً على عدد وحدات المجموع بل على عدد وحدات العينة »[٣] .

وتقول بولين ينج Young « إذا كان المجموع متجانساً من ناحية الصفات التى

---

(١) Royal Anthropological Institute of Great Britain, Notes and Queries on Anthropology (London, 1951) p. 53.

(٢) H.H. Remmers, Introduction to Opinion and Attitude Measurement (N.Y., 1951) p. 39.

(٣) Mildred Parten; Surveys, Polls and Samples, (N.Y., 1950) p. 291.

تريد دراساتها فإن عينة صغيرة قد تعطينا نتائج يعتمد عليها أكثر من تلك التى نحصل عليها من عينة كبيرة لمجموع مختلف من ناحية هذه الصفات »[١].

ومن كل ما سبق نرى إجماع العلماء على مدى كفاية العينة للتعميم وليس على حجمها نفسه حتى ولو بلغ حجمها من الصغر مبلغاً كبيراً ، غير أن مشقة العمل يجب ألا تتخذ عذراً لجعل العينات من الصغر بحيث لا تتوافر فيها صفة تمثل المجموع بدرجة معقولة من الدقة . إذ أنه بدون توافر هذه الشروط يصبح البحث الذى نجريه لا قيمة له مطلقاً ، بل ربما أصبح مضللا وخطيراً إذا بنينا آراءنا وتصرفاتنا عليه . فمن الخطأ مثلا أن نعلن نظافة قطر يضم عشرين مليوناً من السكان من وباء حل به على أساس فحص عشرات أو حتى مئات من الأفراد والتثبت من خلوهم من هذا الوباء . وبالمثل فلا يجوز أن نقول إن متوسط أجر العامل فى مدينة كبيرة كمدينة الإسكندرية خمسة جنيهات فى الشهر إذا كان عدد العمال الذين سجلنا أجورهم ١٠ عمال أو ٥٠ عاملا أو حتى ٥٠٠ عامل . وإنما تكون نتائجنا أقرب إلى الدقة إذا كان بحثنا شاملا لخمسة آلاف أو عشرة آلاف أو خمسين ألف عامل ، إذ من الواضح أن درجة الدقة تزداد كلما زاد عدد المفردات التى يشملها البحث أو بعبارة أخرى زاد حجم العينة »[٢].

ولم تعد مسألة تحديد حجم العينة تترك للتخمين أو للتقدير الشخصى وإنما أصبحت تخضع لعدد من المقاييس والنظريات الإحصائية التى تحدد حجم العينة المناسب لمجموع بالذات . ولما كنت لا أجد هذا الكتاب مجالا لشرح مثل هذه المقاييس والنظريات الإحصائية فإنى أكتفى بتوجيه من يريد التوسع فى هذا الموضوع إلى الباب الثانى عشر من كتاب « طرق الإحصاء » للدكتور محمد حمدى مظلوم وإلى الباب الثامن من كتاب « الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية » للدكتور السيد محمد خيرى ويعتبر هذان المرجعان على رأس المراجع التى كتبت فى هذا الموضوع باللغة العربية .

---

(١) Pauline Young, Scientific Social Surveys and Research (N.Y., 1953) p. 332.

(٢) محمد حمدى مظلوم : طرق الإحصاء (الإسكندرية ، ١٩٤٨) صفحتا ٣٦٢ – ٣٦٣ .

رقم الايداع	٨٧/٤٢٨٨
الترقيم الدولى	١ـ٢٠٧٠ـ٠٢ـ٩٧٧

٣/٨٧/٤
طبع بمطابع دار روتابرينت